بائعة الخبز

كزافيه دي مونتابين

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

المكتبة العالمية

بائعة الخبز

دار العلم للملايين

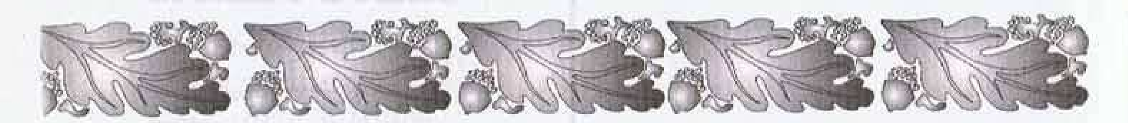


هذه الرواية

- تُعتبر «بائعة الخبز» إحدى أعظم القصص الإنسانية في الأدب العالمي كله.
- امرأة تُتّهم بجريمة لم ترتكبها، فتُسْجن وتهان وتتقلّب في مهاوي الشقاء، في حين ينعم المجرم الحقيقي بالحرية والسعادة والثراء العريض.
- ولكن عدالة السماء لا تلبث أن تتدخل فتُعْلن براءة المرأة الشقيّة ويلقى المجرم جزاء ما فعلت يداه.
- إنها رواية في مستوى «البؤساء» لفيكتور هيغو، ومن أجل ذلك تُرجمت إلى جميع اللغات، مُثِّلت على الشاشة مرّاتٍ ومرّات.


ISBN 9953-63-305-3 كتب الفتيان والفتيات 6550
9 789953 633053 3

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



بائعة الخبز

رواية

تأليف : كزافيه دي مونتابين

تعريب : رمزي البعلبكي

طبعة جديدة مَزيدة ومُنقّحة

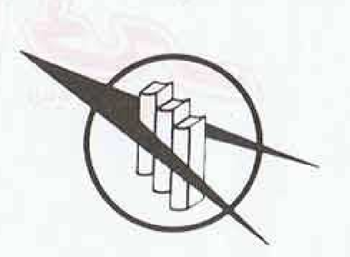
ومُرفقة بمجموعة من الأسئلة المنهجية والمفيدة

دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com



الطبعة الأولى ١٩٩٤

الطبعة الخامسة

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥

١ـ حنّة وجاك

في الثالثِ من شهرِ أيلولَ عام ١٨٦١، كانت السيّدة حَنّة فورتيه تسيرُ إلى فورتفيل، وهي تحملُ آنيةً بيدها اليُمنى، وتُمسكُ بابنها جورج، باليسرى، وهو لاينفكّ ينظرُ إلى جوادٍ خشبيّ كان يجرّه وراءه.

ولمّا وصلا إلى الدُكّانِ، قالت حَنّة لصاحبةِ الدُكّان: «املأي لي هذه الآنية بزيتِ البترولِ، من فضلك»!

فقالتْ صاحبةُ الدُكّان مندهشة: «لكنني ملأتُها لك أمس»!

ـ «صحيحٌ، ولكن ابني عثرَ بالآنيةِ فسالَ ما فيها أرضاً».

ـ «عليك أن تكوني أكثر حَذراً، لأن زيتَ البترولِ خَطر. يجب أن تَضَعي الآنية في مكانٍ لا يطاله ابنُك، وإلا عرّضتِ المعملَ للنار». ثم سألَتْها: «هل أنتِ مرتاحةٌ إلى عملك في المعملِ، أم كنتِ تفضّلين عملاً آخر»؟

ـ «إنّها الحاجةُ يا سيّدتي. إن صاحبَ المعملِ قد أحسنَ إليّ حينَ عيّنني حارسةً للمعمل. لكنّ هذه الوظيفةَ قد لا تُناسبُ النساءَ، كما أن المعملَ يبعثُ في ذهني ذكرى زوجي الذي قُتل فيه. ثم إن ابنتي

الصغيرةَ لا تزالُ عند المرضع في قريةِ جوانيي، وهي تكلّفني ثلاثين فرنكاً في الشهر، وهذا مبلغٌ كبير».

ـ «لا بُدّ أن يهيمَ بكِ أحدُ الرجالِ يوماً، ويتزوّجَك، فيتولى هو عنكِ هذه المصاريف».

ـ «معاذَ الله أن أخونَ ذكرى زوجي! وأنا لا أحتاجُ إلا لمبلغ ألفي فرنك. . لكنّ هذا ثروةٌ لا أطالُها إلا في المنام».

ثم خرجتْ حنّة مودّعةً صاحبةَ الدكان، التي أخذت تفكّرُ في حالِ هذه الأرملة: لقد كانت حنّة في الخامسة والعشرينَ من عمرِها، وكانت جميلةً، فما الذي يمنعُها من الزواجِ ثانيةً بعد مقتلِ زوجها الميكانيكي بطرس فورتيه الذي كان يشتغلُ في معمل جيل لابرو؟ وما حاجتُها إلى الألفي فرنك؟ وظنّت صاحبةُ الدكان أن حنّة شديدةُ الطمع.

لكن حنّة لم تكنْ كذلك. كان كلّ همّها أن تؤمّن حياة ولديها، بإنشاء معملٍ للخياطة تديرُه بنفسها، دون أن تحتاجَ إلى رجلٍ ما في إعالةِ ولدَيْها.

وبينما كانت حنّة راجعةً ناداها صوتُ رجلٍ يُدعى جاك جيرود، وقال: «إنّك تتهرّبينَ منّي يا حنّة، وأنت تعلمينَ أنني شديدُ التأثّرِ من موقفك».

فقاطعته حنّة قائلةً: «لقد قلتُ لكَ أكثرَ من مرّة إن هذا الحبّ غيرُ

معقولٍ، لأنني لن أتزوّجَ بعد أن ترمّلت. ولا تنسَ أنه لم يمضِ حتى الآن أكثرُ من خمسةِ أشهرٍ على مقتلِ بطرس زوجي، الذي كان صديقاً لك».

ـ «وهل تظنينَ أن حبي لكِ بعد وفاته خيانةٌ له؟ إن الأمرَ على العكسِ، فأنا أريدُ أن أسعدَك وأسعد ولديكِ. إن راتبكِ من الحراسةِ ضئيلٌ جدًّا. أما أنا فراتبي خَمسةَ عَشَرَ فرنكاً في اليوم، وفي هذا ضمانةٌ أكيدةٌ لسعادتنا ومستقبلِ ولديك».

ـ «أعرفُ أنّكَ صادقُ النيّة، ولكنني قرّرتُ ألّا أتزوّج».

ـ «لا تتسرّعي! واعلمي أني قد أصبح يوماً صاحبَ ثروةٍ كبيرة جداً. ثم إني أحببتكِ قبل مقتلِ زوجك، لكنني كتمتُ هذا الحبَّ في قلبي احتراماً للصداقةِ التي كانت تربطني ببطرس».

ثم أخذَ يدَها وحاول أن يقبّلها، فتابعت سيرَها، فتبعَها وهو يعرِض عليها أن يحملَ الآنيةَ عنها، فقالت: «إنها ليست ثقيلةً، فكل ما فيها أربعةُ ليتراتٍ من زيتِ البترول».

ـ «انتبهي لخطرِ هذا الزيتِ، فإنه شديدُ الاشتعال. كما أن السيّدَ لابرو قد منع إدخالَه إلى المعمل».

ـ «لم أكن أعلمُ بذلك، وسأعملُ بنصيحتِك منذُ الغد».

ولما وصلوا إلى غرفة حنّة، أبى جاك أن يودّعَها قبل أن تقولَ له إنها ستنظر في أمرِ زواجِهما، فوعدته بذلك.

٢ـ جيل لابرو

كان جاك نائبَ رئيسِ المعملِ، وكان لا يتجاوزُ الثلاثين. وقد قدّرَ صاحبُ المعملِ نشاطَهُ وذكاءه واهتمامَه بالميكانيكِ، فقرّبَهُ منه ورقّاه. ولم يكن جاك كاذباً حينَ قال لحنّة إنه يحبّها. لكنّه كان من الأشخاصِ الذينَ يولَعون بالشيء، حتى إذا ما حَصَلوا عليه، تركوه دونَ تأثّر. كما كان اهتمامه بالمالِ كبيراً إلى حدّ جعله يفكّر بالحصولِ على الثروةِ كيفما اتّفق.

وبينما كان جاك يراقبُ عُمّالَه في اليوم التالي، تقدّم منه عاملٌ اسمه فنسانت يطلب منه أن يسمحَ له بالذهاب إلى بيته لأن امرأتَه مريضة، لكن جاك رفض أن يسمحَ لهذا العاملِ بالانصرافِ لأن أوامرَ صاحبِ المعملِ كانت تمنعُ العمّالَ من الانصرافِ قبلَ نهايةِ ساعاتِ العمل.

ولم يستطعْ فنسانت أن يقابلَ صاحبَ المعمل، لأنه كان غائباً، فلم يَبْقَ له إلا أن يطلبَ من حنّة أن تأذَنَ له بالذهابِ، فهي حارسةُ المعمل. وأبت حنّة أن تفتحَ البابَ للعامل، لكنه أخذ يستدرّ عطفَها حتى أشفقتْ عليه وتركتْه يخرج.

ولمّا علم جاك بما فعلت حنّة حذّرَها من مغبّةِ عملها. وفي تلك اللحظةِ دخلَ صاحبُ المعملِ، وكان قد رأى فنسانت ذاهباً، وعلم أن حنّة فتحتْ له البابَ، فقال لحنّة:

ـ «كان يجبُ ألا تفتحي البابَ لفنسانت، والآن عليّ أن أطردَه

ليكونَ عبرةً للآخرين».

ولم تستطعْ حنّة أن تجيب.

كان صاحب المعمل، جيل لابرو، رجلاً شديدَ التعلّق بعمله. وكان له طفلٌ اسمُه لوسيان، ماتت أمّه، فأرسله أبوه إلى أخته في الريف، فكان يزورُه مَرّةً في الشهرِ، ويكرّسُ كلّ وقته لجمعِ المالِ الذي يؤمّن به مستقبل لوسيان.

ودخل جيل إلى غرفته، ومعه جاك، فقال الأوّلُ إنه أخطأ بتعيينِ امرأةٍ في مركزِ حراسةِ المعمل، فأجابه جاك: «صحيحٌ! إنها لا تستطيعُ القيامَ بهذهِ المهمّة».

ثم جاء أمينُ الصندوقِ يحملُ النقودَ والسنداتِ، فوضعها على طاولةِ جيل، فهمّ جاك بالانصراف. لكن جيل استبقاه حتى يفرغَ أمين الصندوقِ من حساباته. فلما أصبحا وحيدين أخبر جيل صاحبَه أنه في طورِ اختراعِ آلةٍ صناعيةٍ إن نجحَتْ كانت مصدرَ ثروةٍ كبيرة. وطلب من جاك أن يساعدَه في استكمال تفاصيلِ هذه الآلةِ، على أن يكونَ له خُمسُ أرباحِ الاختراع. ثم قال: «ما عليكَ إلا أن تعملَ ساعتين يومياً في غرفتي، حتى لا يتسرّبَ شيء عن هذا الاختراع إلى أحد».

فوافق جاك شاكراً، وانصرف متّجهاً إلى غرفة حنّة ليخبرَها أنّ صاحبَ المعمل في انتظارها. وأخذ يفكّر في نفسه: «لمَ أرضى بالخُمس إن كنت قادراً على الحصول على الكُلّ؟ وإن تمّ لي الحصولُ على الكُلّ صرت صاحبَ ثروةٍ طائلةٍ، وتزوّجتُ حنّة». ثم تبسّمَ

بخُبثٍ وانصرفَ إلى عمله.

دخلت حنّة إلى غرفةِ صاحبِ المعمل، فأنّبها على سَماحها لفنسانت بالذهابِ، فأخذت تَسرْدُ حُجّتَها، وتقول إن العاطفة أجبرتْها على السماحِ لذلك البائسِ بمغادرةِ المعملِ ليرى امرأتَه. فقال جيل لها: «لعلّ بقاءكِ في هذا المعملِ مستحيل، فأنتِ تحبّينَ الجدلَ، وأنا أحبّ الانضباط».

وهنا دخل أمينُ الصّندوقِ ودفعَ بعضَ الحساباتِ لجيل، ثم قال له، مشيراً إلى حنّة: «أرجو يا سيدي أن تأمرَها بعدمِ إدخالِ زيتِ البترول إلى المعملِ ثانيةً، فإنها تجهلُ أخطاره».

فوثب لابرو من مكانه وقال: «زيتُ بترولٍ في هذا المعمل»!! فاعتذرت حنّة وقالت إنها لم تكن تعلمُ بأوامرِ جيل، لكن جيل قال: «يؤسفني أن أقولَ لكِ إن خطأكِ كبيرٌ جداً. . ستبقين في هذا المعملِ إلى آخرِ الشهر، ليس إلا».

ـ «أنت إذن تطرُدني من هذا المعمل الذي قُتلَ فيه زوجي أثناء قيامه بوظيفته، حين انفجرتْ به الآلة. إنك تريدُ أن تصلحَ اختيارَك لي حارسةً بأن تطرُدَني فتقطعَ رزقي، وتشرّدَ ولديّ. . إنك لن تلقى خيراً بعدَ طردي».

فتألّمَ جيل لابرو لما قالته حنّة، فقال لها: «إنني لا أطردُكِ، بل أشعرُ بخطأ تعييني إيّاكِ في مركزٍ لا يصلُح له إلا الرجالُ. وسأجدُ لك في آخرِ الشهرِ عملاً مناسباً لك».

ـ «لا يا سيّدي. . لقد صار هذا المعملُ شؤماً عليّ، وقد قرّرتُ أن أتركَه».

وانصرفت باكية. وقال جيل لأمينِ الصنّدوق: «إني أشفق على هذه المخلوقةِ، وسوف أعيّنُها في خدمةِ أختي».

ـ «لا تتسرّعْ يا سيّدي. . وتذكّر أن هذه المرأةَ قد هدّدتك منذُ قليل. إنّها تحقد عليك».

وغيّر جيل الحديث، فقال: «ما المبلغ الموجود في الصندوق الآن»؟

ـ «في الصندوق ٧١٢٣ فرنكاً و٣٠ سنتيماً. وسوف آتيكَ بهذا المبلغِ لتضعَه في صندوقكِ الخاصّ، كي لا تقعَ المسؤوليّةُ عليّ».

أما حنّة، فقد بقيت في غرفتها تبكي لما حلّ بها. ولما انصرفَ العمالُ جاءها جاك جيرود، فأخبرتْه بما حصل، فقال: «ماذا ستصنعينَ آخرَ الشهر؟ وإلى أين ستذهبين»؟

ـ «لقد قرّرتُ أن أسافر».

ـ «ولكن ألا تفكّرين بمصيري بعد سفرِك»؟

ـ «أنا متأكّدةٌ من أنّك ستنساني بعد الفراق».

ـ «اسمعي يا حنّة. إنني أقسمُ لكِ بأنني سأتزوّجك قريباً. . . فإن رفضتِ هذا، دفعتِ ولديكِ إلى الشقاء والعذاب. سأنقذُكِ يا حنّة، وستكونينَ امرأتي».

وانصرف جاك، وغرقت حنّة في بحرِ أفكارها، فجعلتْ تناجي نفسها قائلة: «إن هذا الرجلَ يعرِض عليّ السّعادة، ويؤمّن مستقبلَ ولديّ، فلمَ أرفُضه؟ ولكن.. ألا أكون مذنبةً إن حَنَثْتُ بقَسَمي لزوجي بأنني لن أتزوّجَ من بعده»؟

٣ ـ الرسالة

كان جيل لابرو ينامُ في غرفته في المعمل. ولم يكن يغيبُ عن هذه الغرفة إلا حينَ يذهبُ ليرى ولدَه في الريف. وعند ذلك يدخلُ من بابٍ صغيرٍ يحملُ مفتاحه.

أمّا جيرود فقد أصبح دائمَ التفكيرِ باختراع السيّد لابرو. وجاء يوماً إلى المعملِ مضطرباً، فلاحظتْ حنّة اضطرابَه، وسألتْه عن أمره، فقال: «لا شيء.. كنت أودّ أن أقول..» لكنّه قطع حديثَه وانصرف وهو يقول: «إلى اللقاء مساءً»!

ثم دخل إلى غرفةِ السيد لابرو، فأخذ يشتغلُ بالاختراع، محاولاً أن يخفيَ اضطرابه.

وكان لابرو في الغرفةِ أيضاً، يكتبُ بعض الرسائل. ثم دخل أمينُ الصندوقِ ومعه المالُ، فدعاه لابرو إلى التريّث ريثما يفرغ من رسائله، فخرجَ أمينُ الصندوقِ. أما جيرود فكان يرتجفُ حينَ سمعَ ذكر المال.

وفي هذا الوقتِ دخلت حنّة إلى الغُرفة، وسلّمت السيّد لابرو رسالةً برقيّة، ما إن قرأها حتى اصفرّ وجهُه وقال: «إن ولدي في حالةِ الخطرِ.. عليّ أن أذهب».

وأمر حنّة بتحضيرِ عَرَبَتِه، كما طلب من جيرود أن يجمعَ أوراقَ الاختراعِ ورسومَه لتوضَعَ في الخزانة. ثم نادى أمينَ الصندوق وسأله عن المبلغِ الذي أحضره، فأجابه: «١٢٧ ألف فرنكٍ قبضتُها من المصرفِ، مع ١١ ألفَ فرنكٍ، أخذتُ منها خمسةَ آلاف. فيكون الباقي ١٣٣ ألفَ فرنك.. أي، بالإضافةِ إلى ما في صندوقك الآن، يكون المجموعُ ١٩٠ ألفاً و٢٥٣ فرنكاً».

فأخذ لابرو المالَ دون أن يَعُدّه، ووضعَه في الصندوق. كما وضع رسومَ الاختراعِ في الصندوق بعد أن سلّمه إيّاها جاك. ثم التفت لابرو إلى حنّة قائلاً: «ثقي أنني لن أدعَكِ من دون عمل.. وأرجو أن تنسَيْ ما حصلَ كما نسيتُه».

فعجبت حنّة لشدّة رفقه وحنانه، ولم تُجب. أما أمينُ الصندوق فأخذ ينظرُ إلى حنّة، ويقول في نفسه: «إن هذه المرأةَ حاقدة على السيّد لابرو، ولا أشُكّ في أنها ستنتقم منه».

ثم ركب السيّد لابرو مركبته منصرفاً، بعد أن وجّه تعليماته إلى العُمّال.

وعند انصرافه استوقفتْ حنّةُ جاك، وسألته: «ماذا كنتَ تريدُ أن تقولَ لي في الصباح»؟

فاضطرب جاك، ثم قال: «لست أجسُر على القولِ.. لكنني سأكتبُ لك رسالةً أشرحُ فيها الأمر».

ـ «إن اضطرابَك يخيفني».

ـ «لا تخافي، ولا تسأليني عن شيء مطلَقاً، فإنني سأكتبُ لكِ ما لا أجسُرُ على قوله».

ثم تركها، وذهب فتعشّى مع رفاقه، وهو يحاولُ جاهداً إخفاء اضطرابه. وبعد أن خرجَ من المطعمِ سار نحو المعملِ، فلم يتّجهْ نحو بابه الكبير، بل نحوَ البابِ الصغير الذي قُلنا إن السيّدَ لابرو كان يدخلُ منه. ثم تلفّت من حوله، فلمّا تأكّد أن لا أحدَ يراقبُه، دنا من الباب، وأخرج من جيبه قطعةً من الشمعِ، وطبعَ عليها قُفْلَ البابِ، ثم أسرعَ بالرّجوع إلى غرفته.

في تلك اللحظةِ نفسها كان السيّدُ لابرو قد وصلَ إلى منزلِ أخته التي طمأنتْه إلى صحّة لوسيان، وأعلمتْه أن الخطرَ زال عنه. فلما سمع لابرو هذا قال لها: «إذن سأرجعُ في الغدِ إلى المعملِ، فأصلُ إليه في الساعةِ العاشرةِ مساء».

ثم سألتْه عن أعماله، فأخبرَها باختراعه الذي سيدرّ عليه الملايينَ التي يؤمّن بها حياةً رغيدةً للوسيان. وقالت له أختُه:

ـ «عليك أن تتنبّهَ إلى سرّيةِ اختراعك، كي لا يسبقَك أحدٌ إليه».

ـ «اطمئني يا أختاه... إني أعملُ وحدي فيه. ولا يعاونُني إلا

رجلٌ واحد، وهو جاك جيرود الذي طالما حدّثتُكِ عن إخلاصِه وذكائه».

ـ «وهل أطلعتَه على سرّ الاختراع»؟

ـ «كان ذاك لزاماً عليّ، لأنه سيساعدُني في إنشاء الآلة وتركيبها. ولا خوفَ منه، فقد خصّصتُ له جُزءاً من الأرباح».

ثم أخبرها عن حنّة، فحزنت الأختُ لما سمعته، لكن جيل قال لها: «لا تحزني.. ستكونُ حنّة في خدمتك قريباً، تساعدُك في أمور المنزل، وتُدخلُ شيئاً من الأنس إليك. ثم إن لها ابناً في عمر لوسيان..»

ـ «ولكني أقومُ بأعمال البيت وحيدةً يا أخي».

ـ «أعرفُ ذلك. ولكن رجائي ألّا ترفضي طلبي، لأكونَ قد أدّيتُ نحوَ هذه المخلوقة ما يريحُ ضميري، بعد أن قُتِلَ زوجُها بانفجار الآلة في معملي».

فقبلت الأخت.

أمّا في المعمل، فكانت حنّة في غرفتها تفكّر في أمر ولديها. وقرع الخادمُ البابَ ليأخذَ مفتاحَ مكتب لابرو لينظّفَه. وقال لحنّة: «ما هذا الاضطرابُ الذي يتولّاك؟ أأنت مريضة»؟

ـ «كلا»!

ـ «وهل قرّرت البقاء في البلد عندما يجيء آخرُ الشهر»؟

ـ «لست أدري».

ـ «ولكنّ السيّدَ لابرو سيعطيك تعويضاً قبل ذهابك».

ـ «أرجوكَ أن تأخذَ المفتاحَ وتنظّف الغرفةَ، ولا تُكثر عليّ الأسئلة».

فانصرف الخادمُ وهو يقولُ لنفسه: «إنها حاقدةٌ على صاحب المعمل حقداً شديداً».

وراحت حنّة بعد ذلك تنقُل زيتَ البترول إلى زجاجات صغيرة. وبينما هي تفعلُ ذلك طرق أمينُ الصّندوق الباب، فدخل وقال: «أما زلت تستعملينَ البترول»؟

ـ «إنني أفرغُه في زجاجات صغيرة. إنه ملْكي. وسأستعمله بعد أن أغادرَ المعمل، فلا يخافُ أحدٌ من الحريق».

فانصرف أمينُ الصندوق حاقداً عليها.

أما جاك فقد ذهبَ إلى غرفة حنّة في المساء. وكان ولدُها جورج يلاعب حصانَه المصنوعَ من الخشب والورق المقوّى، وقد ضربه ضربةً شقّ بطنَه بها.

وحاول جورج أن يخفيَ الشقّ، فأخذ يحشو بطن الحصان بالأوراق، لكن الثّغرةَ ظلت ظاهرةً في الحصان.

وجاء جاك، فأعطى حنّة رسالةً، وقال لها: «إن مستقبلَ ولديك ومستقبلَنا نحن بين يديك». ثم خرج مُسرِعاً.

وفتحت حنّةُ الرسالةَ وقرأتها:

«حبيبتي حنّة

لقد توصّلتُ إلى اختراعٍ عظيم سيجعلُني من أصحابِ الثروات. وعندي الآنَ مئةُ ألف فرنكٍ سأستخدمُها في هذا الاختراع. إن مستقبلَنا ومستقبلَ ولديك رهنٌ بك الآن، فاعلمي أنني سأنتظرك في الساعة الحاديةَ عشرةَ من هذه الليلة، مع جورج ابنك، عند جسر شارلتون، حتى نسافرَ إلى الخارج حيث السعادةُ بانتظارنا. أما رفضُك هذا الطلبَ فمعناه أنك ستقعينَ في متاهات اليأس، وستظلّين تحت رحمة مَن طردَك من معمله.

٧ أيلول ١٨٦١

جاك جيرود»

وأخذت حنة تفكّر، فتقولُ في نفسها: «لا بدّ أن جاك قد فَقَدَ رُشْدَه، فمن أين له كلّ هذه الأموال، وما أمرُ هذا الاختراع المفاجىء»؟!

وظنّت أن جاك ينصبُ لها شَركاً، فاغتاظت ودعكت الرسالةَ بيدها وألقتْها إلى الأرض، فأخذها جورج ووضعَها في بطنِ جوادِه ليسدّ الثّغرةَ فيه، دون أن تراه أمّه.



فأخذها جورج ووضعها في بطن جواده

٤ ـ حرْق المعمل

كان جاك جيرود عند جسرِ شارلتون في الساعةِ الحاديةَ عشرةَ ليلاً. ولم يعبأ بالعاصفةِ التي كانت تَهُبّ هائجةً، وكان يقول في نفسه: «أعلم أنّها لن تجيء».

ولمّا طال انتظارُه قال في نفسه: «سَواء أتت أم لم تأتِ، فإنني سأفعلُ ما أريدُ أن أفعلَه. إنها لا تكافئني على حبّي لها إلا بالاحتقارِ والازدراء، فليمتْ حبّي لها، وليَعشْ مكانَه حبّي للمال».

ثم تذكّرَ الرسالةَ فارتعش واضطرب.

بعد ذلك رَجَعَ إلى المعملِ فدخلَ من البابِ الصغيرِ الذي صنعَ مفتاحاً له، ورأى النورَ ينبعثُ من غُرفة حنّة. ثم توجّه إلى المستودعِ القريبِ من غرفتها، فأخذ منه أربعَ زجاجاتٍ من البترولِ التي كانت لحنّة. ثم ذهبَ إلى معملِ النّجارة فصبّ فيه زجاجتين، ثم انطلقَ إلى مكتبِ صاحبِ المعملِ، فخلعَ الصّندوق الحديديّ بمهارةٍ، وسرق الأموالَ التي فيه، مع رسومِ الاختراع، وصبّ الزجاجتين الباقيتينِ هناك.

ثم انطلق إلى حرقِ معملِ النجّارةِ أوّلاً، فأضرمَ فيه النار.

٥ـ جريمة القتل

رجع السيّدُ إلى معمله، فوصلَ في الساعةِ الثانيةَ عشرة والنصفِ بعد منتصفِ الليلِ، وذلك بسببِ العاصفةِ التي أخّرت مركبتَه. وكان جاك في ذلك الوقتِ قد حرقَ معملَ النجارةِ وانطلقَ إلى مكتب لابرو ليحرُقَه، فما إن أضرمَ النارَ فيه، حتى دخل لابرو، وقد شعر أن الحريقَ ليس عن طريقِ الصدفةِ، لأنّه رأى بابَ مكتبه مفتوحاً.

ولم يجد جاك بُدًّا من إسكاتِ استغاثةِ سيّدِه، فهجم عليه، وأغمدَ الخنجرَ في قلبه، فقتله. وفي تلك اللحظةِ دخلت حنّة.

وأيقنت حنّة أن تُهمةَ الحرقِ والقتلِ ستقعُ عليها، فقالت في نفسها: لكنني أملك الدّليلَ على براءتي. إنها الرسالة.. ولكن أين وضعتُها.. يجب أن أبحثَ عنها سريعاً.

ثم انطلقتْ إلى غرفتها لتبحثَ عن الرسالةِ، فسمعت أمينَ الصندوقِ يقولُ لبعضِ العمال: «لا شَكّ أن مدام فورتيه الشقيّة هي التي أضرمتِ النارَ في المعمل.. لقد كانت هدّدت السيّدَ لابرو بالانتقامِ منه».

وأسرعت حنّة إلى غرفتها، وكادت تُجَنّ حين لم تعثر على الرسالة، التي كانت البرهانَ الوحيدَ على براءتها. أما جورج فكان قابعاً في الزاوية ممسكاً بجوادِهِ الخشبيّ.

وأما جاك فقد فكّرَ في الهربِ أوّلاً، لكنه ارتأى أن يبقى ويتّهمَ حنّةَ

بما فعل، لأن لديه قرائنَ كثيرةً ضدّها. ثم انضمّ إلى سائر العمّال الذين تجمهروا حول رجال المطافىء، وأخذ يقول: «إنها الشقيّةُ حارسةُ المعمل»!

ثم قال في نفسه: «عليّ أن أُظهرَ للعمّال كثيراً من الإخلاصِ والشّجاعةِ، حتى أُبعدَ عني التّهمةَ التي ستتّهمُني بها حنّة».

وهنا خطرت له فكرةٌ، فأخذ يصيحُ: «سأدخلُ إلى الغرفةِ لأنقذَ الصّندوق».

ثم وثب إلى النارِ بشجاعةٍ، وصرخ وهو يتكلّفُ الذّعر: «هنالكَ جثّة»! ثم حملَها إلى العُمّالِ، متظاهراً بالدهشة والتأثّر. وصرخ أمينُ الصّندوق: «إنها جثّة رئيسنا»!

وتظاهر جاك أنه لم يسمعْ ما قال أمينُ الصّندوق، فقفزَ وسْطَ ألسنةِ اللهبِ مدّعياً أنّه يريدُ إنقاذَ الصّندوقِ من الحريق. وبعد قليل أخذ يستغيث: «أنقذوني.. إنني قرب الصندوق.. إنني أختنق..».

وحاول العمّالُ إنقاذه لكنّ الجدرانَ كانت قد تداعت، فمنعتْهم من بلوغه. وظنوا أنه ماتَ بسببِ شهامته وإخلاصه.

٦ـ التحقيق

فشلت جهودُ رجال الإطفاء. فقد استحالَ المعملُ كلّه إلى رماد.

وأخذ أمينُ الصّندوق يردّد: «إنها حنّة فورتيه، دون شكّ». وسمعه

رئيسُ الشّرطةِ، فدنا منه وقال له:

ـ «من أنتَ؟»

ـ «إني أمينُ الصّندوق. تعال يا سيّدي وانظرْ إلى جثة صاحب المعمل».

فذهب معه رئيسُ الشّرطة، ورأى الجثّةَ، فقال له: «من تتّهم بهذه الجريمة»؟

ـ «حارسةَ المعملِ يا سيّدي. إنها حنّة فورتيه».

ـ «سمعتُك تقولُ إنّ هناكَ ميتاً آخر».

ـ «نعم! إنه جاك جيرود الذي اخترقَ النارَ بدافعٍ من إخلاصِه، فسقطت عليه الجُدران وقُتل».

ـ «وما البراهينُ التي تعتمدُ عليها في اتّهام حنّة فورتيه»؟

فأخذ أمينُ الصّندوق يحدّثُه عن زجاجاتِ البترول، وعن تهديدِ حنّة لصاحبِ المعمل، وعن ذهابِ السيّد لابرو إلى الريف لتفقدِ ولده. ثمّ قالَ رئيسُ الشرطة:

ـ «وكيف تعَلّلُ عودةَ السيّد لابرو في هذه الليلةِ بالذات»؟

ـ «لا بدّ أنه اطمأنّ إلى صِحَةِ ولده، فاضطرّ إلى تقديم موعدِ رجوعه».

ـ «وهل تعرفُ عنوانَ أختِه»؟

ـ «نعم يا سيّدي».

ـ «إذن أرسل إليها برقية تُعلمها بالأمر».

فانصرف أمينُ الصّندوقِ، وشرعَ رئيسُ الشّرطةِ يضعُ تقريرَه الذي يذكُر فيه إجماعَ العُمّالِ على اتّهامِ حنّة. أما حنّة فكانت قد هربتْ في ذلك الوقتِ مع ابنها لعلمها أن جاك سيتّهمُها بحرقِ المعملِ وقتلِ صاحبه.

وإذا عُدنا إلى المعملِ نجدُ قاضيَ التحقيقِ قد جاء إليه بدعوةٍ من رئيس الشرطة. وقد أحضرَ معاونوه زجاجاتِ البترولِ التي كانت قد ملأتها حنّة.

ثمّ استجوبَ القاضي أمينَ الصّندوقِ الذي أعاد اتّهامَه لحنّة، وذكرَ له أقوالَ حنّة لصاحبِ المعملِ عندما طرَدَها.

لكن قاضيَ التحقيقِ قال: «لم تكنْ بالمجرمِ حاجةٌ إلى إضرامِ النار في المكتبِ، لأنّ النارَ التي شبّت في معمل النّجارةِ كانت ستنتشرُ بسُرعة إلى المكتبِ نفسه. ومعنى ذلك أنّ في الأمر سَرِقَة. فهل كان أحدٌ غيرُكَ يعلم بوجود المالِ في الصّندوق»؟

ـ «نعم! لقد كانت حنّة فورتيه وجاك جيرود في الغرفة حين أعطيتُ السيّدَ لابرو المبلغ».

وأخذ القاضي يردّد: «جاك جيرود». وظنّ أنه توصّل إلى كشفِ السرّ. لكنه أصيبَ بخيبة أمَلٍ عندما أخبره أمينُ الصندوق أن جاك قُتل

وهو يخاطرُ بحياته لينقذَ الصندوق الحديدي من الاحتراق.

لكن القاضيَ تابعَ التصريح بشكوكه، فقال: «إن كانت حنّة فورتيه عالمةً بغيابِ السيّد لابرو، فلمَ كانتْ تحمل خنجراً في يدها»؟

وهنا دخل أحدُ العُمّال ومعهِ امرأةٌ، فقال للقاضي: «عندي يا سيّدي الدليلُ القاطعُ على جريمةِ حنّة فورتيه».

لقد كانتِ المرأةُ التي معه صاحبةَ الدّكّانِ الذي اشترَتْ منه حنّة البترول. وأخبرتْ صاحبةُ الدُكّان القاضيَ بأنَ حنّة اشترتْ البترولَ في يومينِ متتاليين، بحُجَةِ أنّ ابنَها عثر بالآنيةِ في اليومِ الأوّل. ثم أخبرتْه عن قولِ حنّة إنها في حاجةٍ إلى ألفي فرنك.

ولم تبقَ لدى القاضي شكوكٌ أخرى، فثبَتت التّهمة لديه، وأصدرَ أوامرَه باعتقالِ حنّة.

وحضرت أختُ السيّدِ لابرو إلى المعملِ، بعد أن وصلتْها الرسالةُ البرقيّة. وقابلت أمينَ الصّندوقِ الذي أخبرَها أن المعملَ صار مَديناً بمائتي ألف فرنك، غير أن شركاتِ التأمينِ هي التي ستدفعُ المبلغ.

وقابلتِ الأختُ قاضيَ التحقيقِ، وقالت له: «يا سيّدي، لست أظُنّ أنّ باستطاعةِ امرأةٍ أن تتسبّبَ فيما حصل».

ــ «ولكنّها هربتْ يا سيّدتي».

ــ «لعلّها هربت بدافعِ الرُّعب».

ــ «لا أظنّ ذلك، فالظاهرُ أنها قد ارتكبتِ الجريمةَ عن سابقِ إصرار، بدليل ما قالته صاحبةُ الدُكّان عن شرائها البترول...».

ــ «أرى من واجبي يا سيّدي أن أخبرَك أن أخي كان في طورِ اختراعِ آلة ميكانيكيّةٍ، وأنه أطلعَ شخصاً اسمُه جاك جيرود على الأمر...».

ــ «إن كنتِ تتّهمينَ هذا الشخصَ، فإنّك مخطئةٌ يا سيّدتي».

ــ «ولماذا»؟

ــ «لأنّه ماتَ شهيدَ إخلاصِه وغَيْرته»...

ثم قصّ عليها القاضي ما يعرفه، فاعتذرتِ الأختُ عن اتّهامِ جاك جيرود.

٧ ــ الكاهن والرسام

كان مع حنّة قليلٌ من الدراهم، فاشترت جُبناً لابنها، وجعلت تطعمُه إيّاه، دون أن تأكلَ هي رغمَ جوعها الشديد.

ووصلت إلى قريةِ شيفري، وسألتْ عن الكاهنِ، ثمّ ذهبت لزيارته. كان الكاهنُ يُدعى فيلكس لوجيه، وكان يناهزُ الستّين من العمر. وكان يقيمُ مع أخته وخادم لهما.

ولقيت حنّة من منزلِ الكاهنِ رِعايةً كبيرةً، فقد أدخلَها مع ولدِها لتستريحَ في غُرفةٍ من المنزلِ، حتى لقد كادت حنّة تَنسى ما حلّ بها.

وبينما كانت أختُ الكاهن تتحدّثُ مع زائرٍ، كان يعمل رسّاماً، دخلَ شخصٌ وأعطى الكاهنَ الجريدةَ، فأخذ ينظُرُ في عناوينها. وكان أوّلُ عنوان فيها: «جريمةٌ رهيبة». وقد ذُكرتْ في المقالِ أوصافُ حنّة التي هربت مع ابنها.

ودُهش الجميعُ لمّا عرفوا بأمرها، لكنّ الكاهنَ قال لأخته وللرسّام: «لا تخبروها بشيء.. إنّها ضيفةٌ في بيتي، ولن أشيَ بها أبداً.. فلتبحثْ عنها الشّرطةُ خارجَ هذا المنزل».

وبعد قليل صَحَتْ حنّة من رقادِها، فانضمّتْ إلى الموجودينَ، وسألَها الكاهنُ: «أظنّ أنكِ لا تنوين الإقامة في هذه القرية».

فاضطربت حنة وقالت: «بل كنتُ أنوي ذلك، وقد جئت أستغيثُك لتساعدَني على أن أجدَ عملاً أعيلُ فيه ولديّ، فأنا أرملةٌ، ولي بنت عند مرضع في الريف».

ـ «ولكنني بحاجة إلى أوراقٍ تثبتُ شخصيّتك. فما اسمك»؟

ـ «حنّة فورتيه».

ـ «وأنتِ قادمةٌ من الفورتفيل، أليس كذلك»؟

فانتصبت حنّة وقالت: «إنّك تعرفُ الأمر إذن يا سيّدي».

ـ «أجل أيّتُها المسكينة. فما ذنبك»؟

ـ «لقد اتُّهِمْتُ ظُلماً وعُدواناً وسأخبرُك بكلّ شي».

ثم روت له، ولأخته وللرسّامِ، أمرَها، وأخبرتهم بالرسالةِ المفقودةِ، وبجريمةِ جاك، وسببِ هربها لوجودِ القرائنِ ضدّها.

ويبدو أن الموجودينَ جميعاً تأكّدوا من صِدقها. ولمّا أعلمَها الكاهن بما ذكرتْه الجريدةُ عن مقتلِ جاك جيرود، أخذتْ تبكي وتقولُ: «لقد قُضيَ عليّ بموته، فهو لم يكن ليجرؤ على إنكار جريمته أمامي. أما الآنَ فقد فقدتُ كل أملٍ في إظهار براءتي».

فقال لها الكاهن: «يجب عليكِ أن تُسرعي إلى القُضاةِ وتعلميهم بأنّكِ بريئةٌ، وتشرحي لهم أسبابَ هَرَبك».

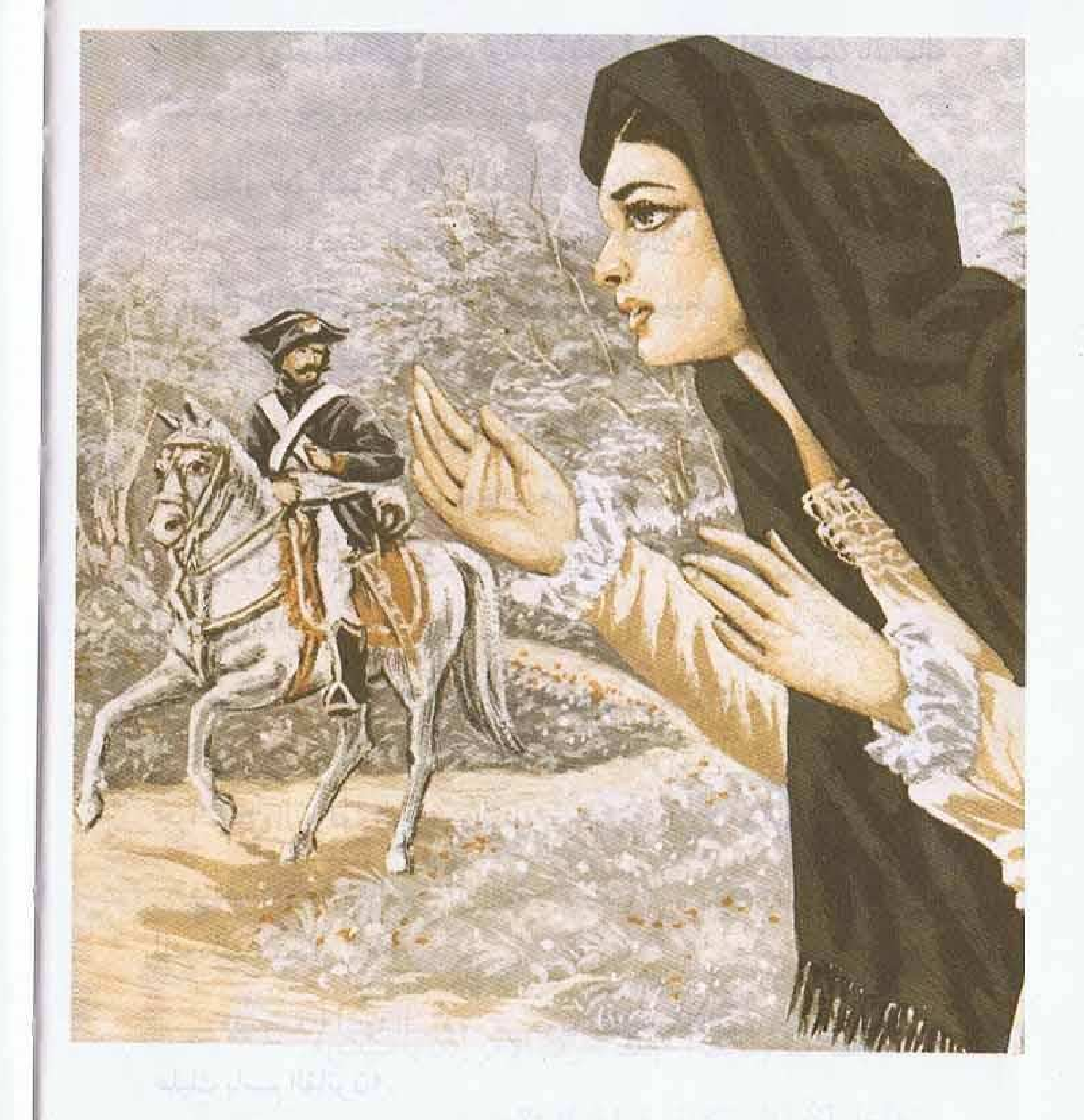
ـ «ولكنّني إن فعلتُ هذا، سجَنوني، وأخذوا ولدي، وإني لا أطيقُ فراقه».

وهنا دخل بعضُ الجنودِ إلى المنزلِ ومعهم شيخُ القريةِ، وقالوا للكاهن: «إننا نبحثُ عن امرأة اسمُها حنّة فورتيه، وهي متّهمة بثلاثِ جرائمَ هي السّرِقةُ والحرقُ والقتل».

فنهضت حنّة وقالت: «أنا هي يا سيّدي... ولكنني بريئةٌ.. أؤكّد لك ذلك...».

ـ «ليس هنا أيّتُها السيّدة. سيكونُ ذلك أمامَ القُضاة.. إنني أقبضُ عليكِ باسم القانون».

وأمر الجنودَ بأن يوثقوا يديها، فأخذ جورج الصغير يبكي قائلاً: «لا تذهبي يا أمّي.. لا تذهبي».



فنهضت حنة وقالت: أنا هي يا سيدي

فاسترحمتِ الأمَ الجنودَ ليسمحوا لها بأخذِ ولدِها معها، فقالوا لها إن هذا غيرُ مسموح به. وهنا تقدّمت أخت الكاهن منها وقالت: «لا تخافي. إن ولدَكَ سيَلقى رِعاية كاملةً في هذا البيت».

فنظر الولد إلى أمّه وقال: «أأبقى هنا يا أمّي»؟

فقالت: «نعم! إنني أرضى بذلك».

وأُخرجتْ حنّةُ وهي تصرُخ: «رجائي أن تحدّثوه عن أمّه، وتقولوا له إنّها بريئة، وإنّها ستعودُ إليه».

أما جورج الذي كان يرى أمّه بين الجنود، فقد انفجر بالبكاء، وأمسكَ بحصانه الخشبي مذعوراً.

وقال الرسّام في نفسه: «يجب أن أصوّرَ هذه الحادثةَ الإنسانيّةَ المؤثّرةَ في يومٍ من الأيّام».

وحُكم على حنّة بالسّجن مدى الحياةِ، في سجنِ سانت لازار. فرغم إنكارها الجريمة، واتهامها جاك جيرود، لم يصدّقْها القُضاةُ الذين ظنّوا أن مَن يرتكبُ مثلَ هذهِ الجريمةَ، يمكنُ أن يخترعَ قصّة الرسالةِ المفقودة.

وتبنّى الكاهنُ وأختُه جورج الطفل.

٨ ـ إلى أميركا

كان جاك جيرود لا يزال على قيد الحياة.

والواقعُ أنّه حين دخل إلى الغُرفةِ، واستغاث حين سقط الجدارُ، كان يعرفُ أنّ الموجودين كانوا عاجزينَ عن الدخولِ إلى الغرفةِ، فاغتنم هذه الفرصةَ وانطلقَ هارباً من بابِ المعملِ الصغيرِ، وهو مطمئن إلى أنّهم سيظنّونه قضى شهيدَ إخلاصِه وشَهامته.

وبعد الحادثةِ صبغَ شعرَه، وغيّرَ زِيّه، وانتحلَ اسمَ بول هرمان، وهو اسمُ زميلٍ له كان يعيشُ معه في غرفة واحدة. فلما مات بول في المستشفى بقيت أوراقُه مع جاك، فاستولى عليها، وها هو الآنَ ينتحلُ شخصيته بها.

واستقلّ جاك السفينةَ إلى أميركا، وكان في الدّرجة الأولى بين الركاب. وكان في السفينةِ أيضاً، وفي الدّرجةِ الأولى معه، رجلٌ أميركيّ مع ابنته الحسناء.

وأخذ العاملُ يتلو أسماء الموجودينَ، فعرَفَ جاك أن اسمَ الرجلِ هو جيمس مورتيمر وأن اسم ابنته نومي.

وحين ذكر العاملُ اسم بول هرمان، دُهشَ شخصٌ كان موجوداً في الدرجةِ الثانيةِ، وقال في نفسه: بول هرمان، ابنُ خالي الميكانيكي.. لكنّه مات.. فهل هذا من قبيلِ الصّدفة.. فالرجلُ هذا لا يشبه ابنَ خالي بشيء!!

وأراد الرجلُ أن يقابلَ بول هرمان، أي جاك جيرود. لكن ركّابَ الدرجةِ الثانيةِ لم يكن مسموحاً لهمْ بالذهابِ إلى الدرجةِ الأولى، ولذلك طلب الرجلُ هذا من الأميركيّ مورتيمر أن يُسديَ إليه معروفاً، وقال: «أرجوكَ يا سيّدي. هل تتفضّل بأن تناديَ شخصاً اسْمُه بول هرمان، وهو من رُكّاب الدرجةِ الأولى، فتقولَ له إنّ أوفيد سوليفو يودّ أن تجيء إليه؟ إنه ابن خالي، يا سيّدي، وكنتُ أحسَبُه ميْتاً».

فوافق الأميركيّ على طلبِ سوليفو، وذهب يسألُ عن بول هرمان. فلمّا اهتدى إليه قال له: «إن هناك شخصاً يقول إن اسْمَه أوفيد سوليفو، وإنّك ابنُ خاله الذي كان يحسَبُه ميْتاً».

فقال جاك محاوِلاً أن يخفيَ احمْرارَ وجهه: «أوفيد سوليفو.. ابنُ عمّتي.. شكراً يا سيّدي، سأذهبُ إليه».

وخرج جاك من القاعةِ، واتّجه رأساً إلى غرفته، وأخذَ يراجعُ أوراقَ بول هرمان، فتبيّنَ له أن أمّه كانت من عائلةِ سوليفو. فأدرك أنه وقع في أمرٍ لم يكن في الحسبان.

وبعد قليل مسح جاك عرقَ جبهته، وقام ليلقى سوليفو. فلما رآه سوليفو قال: «أأنت بول أونوريه هرمان المولودُ في ديجون، وابنُ سيزار هرمان، وكلير سوليفو»؟

ـ «دون ريب. وقد كنت تحسَبُني من الأموات، أليس كذلك»؟

ـ «أجل. فقد قال موظّفٌ في المستشفى الذي كنتَ فيه إنك مُتّ.

وقد ماتت أمّك حُزناً عليكَ، بعد وفاةِ أبيك بسنةٍ واحدة».

ـ «لقد عَرَفْتُ ذلك، وحزنتُ كثيراً».

ـ «والآن لم يبقَ من عائلةِ هرمان أحدٌ غيرك، كما لم يبقَ من عائلةِ سوليفو غيري».

ـ «هو كذلك».

ـ «ولكن تغيّرت كثيراً، ولا شكّ أنك من أصحابِ الثروةِ الآن».

ـ «لا بأسَ بأحوالي الماديّة، فقد اخترعتُ اختراعاً جيّداً. والآن أخبرني بماذا تشتغل»؟

ـ «بمهنتي القديمةِ عينها».

ـ «وما هي»؟

ـ «كيف تنسى؟ ألا تعلمُ أني ميكانيكيّ».

فحاول جاك أن يغيّر مجرى الكلام، فقال: «وهل أنتَ مسافرٌ إلى نيويورك للعمل»؟

ـ «أجل، فسوف أعملُ في معمل جيمس مورتيمر، وهو ذلك الأميركيّ الذي كنتَ واقفاً قربَه وقربَ ابنته.. والآن أخبرني ماذا حصل لمرغريت».

ـ «مَن مرغريت هذه»؟

ـ «وهل نسيت؟ إنها الفتاةُ التي كنتَ تحبها».

ـ «آه.. فهمت. لقد كدتُ أنسى هذه الفتاة التي عرفتُها منذ زمنٍ طويل».

وتسرّب الشكّ إلى نفسِ سوليفو. ثم إنه رأى أثرَ الصّبغة التي أثّر فيها عرقُ جاك في جبهته، فلم يعد يشُكّ في أن هذا الرجلَ قد انتحلَ شخصيّة ابنِ خاله. وصمّم سوليفو على معرفةِ الحقيقة.

ثم تحدّثا عن مورتيمر، فقال سوليفو لجاك إن مورتيمر من أصحابِ الاختراعاتِ أيضاً، ونصحه بالتعرّفِ إليه.

ثم تصافحا وانصرفَ جاك إلى غرفته.

أما سوليفو فظلّ يفكر في وسيلةٍ يحصُلُ بها على مبلغ يمكّنُهُ من الانتقال إلى الدرجةِ الأولى. وبعدَ قليلٍ رأى رجلينِ يتحدّثان، وكان أحدُهما رجلاً مسنّاً من أهلِ كندا، والآخرُ شابّاً. فوقف يستمعُ إلى حديثِهما، فسمع الشابَّ يقول للكنديّ:

ـ «ما هو هذا الدواء الذي قلتَ إنه سيشفيكَ من الحُمى المزمنةِ التي أصابتك».

ـ «إنه دواء عجيب، لا يَشفي من الحُمى، والصّداع، والحُروق فحسب، بل إنَّ له مقدرةً سحريّةً، جعلتِ الناسَ يسمّونه: إكسيرَ الحقيقة. وذلك أن من يشربُ منه بعضَ النقاط مع الماء أو غيرِه، يُصَبْ بعارضٍ جنونيّ فيَبُحْ بكلّ أسرارِه، ثم ينسَى كلَّ ما قال».

فتلهّف الشابّ لمعرفة أمرِ هذا الإكسير وقال: «ومن أين أحصُلُ

على هذه المادةِ العجيبة»؟

ـ «أنت ذاهبٌ إلى نيويورك، فاكتبِ العنوانَ التالي: السيّد شيشلنو، الرقم الرابع والعشرون في الشارع الحادي عشر.. فهو يبيعُ كميّاتٍ قليلةً منه وسعرُه يعادلُ وزنَه ذهباً».

وهنا حفظ أوفيد سوليفو العنوان، وقال في نفسه: أقسم أنني سأشتري هذا الإكسيرَ لأسقيَه لبول هرمان المزيّفِ فأعرفَ سرَّه».

٩ ـ جيمس مورتيمر وابنته

كانت نومي مورتيمر تعزفُ لحناً على البيانو في قاعة الاجتماعات في السّفينةِ، عندما تقدّم منها جاك وقال: «لا بدّ أن تكوني يا سيّدتي قد أقمتِ في فرنسا».

فقالت: «وكيف عرفتَ ذلك»؟

ـ «إنّ هذه الموسيقى الشجيّةَ هي موسيقى الأوبرا في باريس، وأنا باريسي».

ـ «أصحيحٌ هذا؟ إن باريسَ مدينةٌ عظيمة».

ـ «نعم يا سيّدتي. ولكنني فضّلتُ أن أسافرَ إلى نيويورك لأزيدَ تحصيلي الميكانيكيّ في معملِ جيمس مورتيمر».

ـ «أتعرفُ هذا الرجل»؟

ـ «كلا، ولكنيّ أعرف أنه من أنبغِ النوابغ على الإطلاق».

ـ «وهل تودّ أن تتعرّفَ إليه»؟

ـ «إن هذا حُلْمُ حياتي يا سيّدتي».

ـ «إذن اعلَمْ أنني أنا ابنتُه».

فتكلّف جاك الدهشةَ، وعرّفها باسمه، فقامت إلى والدِها وعرّفته به.

وراح الميكانيكيّان يتحدّثان عن شجونِ عملهما. وذكر مورتيمر آلتَه التي اخترعها، فقال جاك: «إنّ لهذه الآلة يا سيّدي عيباً واحداً، وهو صوتُها المرتفع. وقد توصلتُ إلى طريقةٍ تجعلُ صوتَها صامتاً».

ثم شرح له تفاصيلَ الاختراعِ الذي كان قد سرقه من جيل لابرو، فأعجب مورتيمر به أيّما إعجاب.

وطلباً للتقرّبِ من مورتيمر قال جاك: «يُسعدني يا سيدي أن أتخلّى عن أرباحي من هذه الآلةِ، وأن تدعوَها باسمك».

فقال مورتيمر متعجّباً: «ولكنّ هذا الاختراعَ سيجني أرباحاً طائلة. وأنت تعلمُ يا سيّد هرمان أنّ...».

فقاطعه جاك قائلاً: «لا بأس يا سيّدي، فلن أرجعَ عما قلت».

وهنا قال الأميركيّ متأثّراً بلطفِ بول هرمان: «إنني أقبلُ بهذا، على شرطِ أن تشارِكَني في معاملي، فتكون أنت مديرَ أعمالي».

فقبل جاكُ على الفور، وهو يحلُم بالسعادةِ التي تنتظرُه مع شريكه الجديد، ومع ابنته الحسناء. ولم يعكّر صفوَ أفكاره إلا وجودُ أوفيد سوليفو.

وفي صباحِ اليوم التالي رأى جاك نسيبَه سوليفو واقفاً وراء رجلٍ، وممسكاً بخنجرٍ في يده. وكان الرجلُ يحملُ كيساً من الجلد فيه ثروةٌ هائلةٌ عرف بها سوليفو. وما إن قطع سوليفو خلسة رِباط الكيس، مغتنماً ضجّة مرورِ السفينةِ بقربِ سفينةٍ أخرى، حتى انقضّ عليه جاك الذي وجد فُرصةً للسيطرة على سوليفو.

وقال جاك: «لقد راقبتكَ أيّها السارقُ المحترف».

ـ «أرجوكَ يا ابن خالي، لا تفضحْ أمري»!

وهنا تقدّم جاك نحو الرجلِ الذي سُرِقَ منه الكيسُ وأعادَه له وقال: «لقد سرقك هذا الرجلُ ويُدعى أوفيد سوليفو. ولكن رجائي ألا تفضحَ أمره لأنه من عائلةٍ ذات أصلٍ كريم».

فنظر الرجلُ إلى أوفيد بازدراء وقال: «إن هذا الرجلَ ذو سوابقَ كثيرةٍ، وهو متّهَمٌ بسَرِقاتٍ عديدة. ولكنني لن أفضحَ أمرَه إكراماً لكَ، ولعائلته ذاتِ الأصلِ الكريم».

فشكره جاك وتقدّمَ بعدَ ذلك نحو أوفيد الذي أصبح أمرُه بين يديه، وقال: «أيّها السارقُ.. أتريدُ ثروةً لك»؟

ـ «تأكّدْ يا ابنَ خالي أنني لم أسرِق إلا من أجلِ تخلّصي من الفَقر الذي أعيش فيه».

ـ «قبل كلّ شيء لا تقل: ابنَ خالي. فأنا لا أريد أن يعلمَ أحدٌ أن في عائلتي لصًّا. يجب ألّا تُعلِمَ أحداً بقرابتنا».

ـ «دون شك».

ـ «اسمعْ يا أوفيد: لقد أصبحتُ شريكاً لمورتيمر، وسأحاولُ أن أكونَ صِهره. وأنا أعلم أنك طمّاعٌ ومحبّ للمال، وسأروي نهمك له، إن امتثلتَ لأوامري».

ـ «سأكونُ رهنَ إشارتك يا سيّدي».

ـ «إني أنذرُك.. إياكَ أن تذكرَ أن بيننا قرابة. وعندما نصلُ إلى نيويورك سأجعلُك من رؤساء المعمل».

ثم أعطاه مَبلغاً من المال وانصرف.

وأخذت موني تميلُ إلى جاك الذي أصبحَ بعد شهرين نائبَ رئيسِ المعمل، في حينَ كان سوليفو عاملاً بسيطاً فيه. وبعد شهرٍ آخر تزوّج جاك موني، وأظهر أوراقاً باسم «بول هرمان» كادت تزعزعُ ثقةَ أوفيد بأن هذا الرجلَ منتحلٌ لشخصية ابن خاله.

ولم يعد جاك يذكر جريمتَه، وكان قد علم أن حنّة حُكم عليها بالسّجن المُؤبّدِ، فسُرّ لنجاته.

١٠ - إكسير الحقيقة

كان جاك يُحسن معاملةَ سوليفو، حتى إنه جعله مفتّشاً عامًا في المعمل. لكن سوليفو كان يحسدُ جاك، ويتربّصُ به الدوائرَ ليسقيَه من إكسيرِ الحقيقةِ الذي اشترى منه قليلاً.

وفي يومٍ من الأيّامِ سافر جاك وأوفيد معاً في سبيلِ قضاء بعضِ الأعمالِ في المدن الأميركية. وعندما أصبحا وحيدينِ في غرفتهما في الفندق قال أوفيد: «لم يعد هناك مانعٌ من أن نجاهرَ بقرابتنا يا ابن خالي».

ـ «ما الفائدة من ذلك؟ أتُنكرُ أني أحسنتُ إليكَ، وعاملتُكَ معاملةً أخويّة»؟

ـ «لست أنكرُ ذلك بتاتاً. لكنك لم تذكرْ لي شيئاً عن ثروتك التي جمعتَها بعد أن كنتَ عاملاً بسيطاً منذ خمسِ سنوات».

ـ «لستُ أدري سببَ إلحاحك. قلت لك إني اخترعتُ آلة ما، وبعتُ الاختراعَ، ولذلك لا يحقُّ لي أن أتكلّم عنه كثيراً».

فسكت سوليفو. ثم أحضرَ لهما الخادمُ القهوةَ، فدسّ سوليفو في فنجانِ جاك شيئاً من إكسير الحقيقة دون انتباهِ جاك. وأخذا يشربانِ القهوة.

وفجأةً أخذ جاك يقهقهُ كالمجنونِ، ثم شعرَ بعطشٍ عظيمٍ، فطلبَ خمراً يشربها.

وهنا تقدّم سوليفو نحو جاك وقال: «أخبرني عن اختراعك الأوّلِ الذي اخترعتَه قبل المجيء إلى نيويورك».

فضحك جاك طويلاً ثم قال: «إنك أبله.. أيَّ اختراع تعني؟ أنا قد سرقتُ الاختراعَ، وقتلتُ جيل لابرو، وحرقتُ معمله... أما أنت فلم أرَكَ في حياتي قبل أن التقينا في الباخرة. إن اسمي ليس بول هرمان..»

وأخبره عن طريقة انتحاله شخصيّة بول هرمان، وقال إن اسمَه الحقيقيّ هو جاك جيرود.

ثم سقط جاك أرضاً، فحمله أوفيد إلى السرير. ولما أفاق جاك صباحاً سألَ عمّا جرى له فقالَ أوفيد: «لقد أصبتَ بنوعٍ من الانهيار العصبيّ».

ـ «ولمَ لم تحضرْ طبيباً»؟

ـ «لقد خفتُ أن يسمعَ الطبيبُ ما كنتَ تقوله. فقد قلتَ أشياء لا أحبّ أن يسمعَها أحدٌ غيري».

فاصفرّ وجه جاك وأخذ يتساءلُ في نفسه عن الأشياء التي نطقَ بها.

أما أوفيد فكتب رسالةً إلى المستشفى الذي مات فيه بول هرمان، يطلبُ نبأً رسميًا عن وفاةِ الرجلِ.

وبعد شهر وصلته رسالةٌ من المستشفى تؤكّدُ وفاةَ بول هرمان. فقال أوفيد في نفسه: الآن وقعتَ يا جاك جيرود في يد أوفيد سوليفو.

١١ـ بعد تسع سنوات

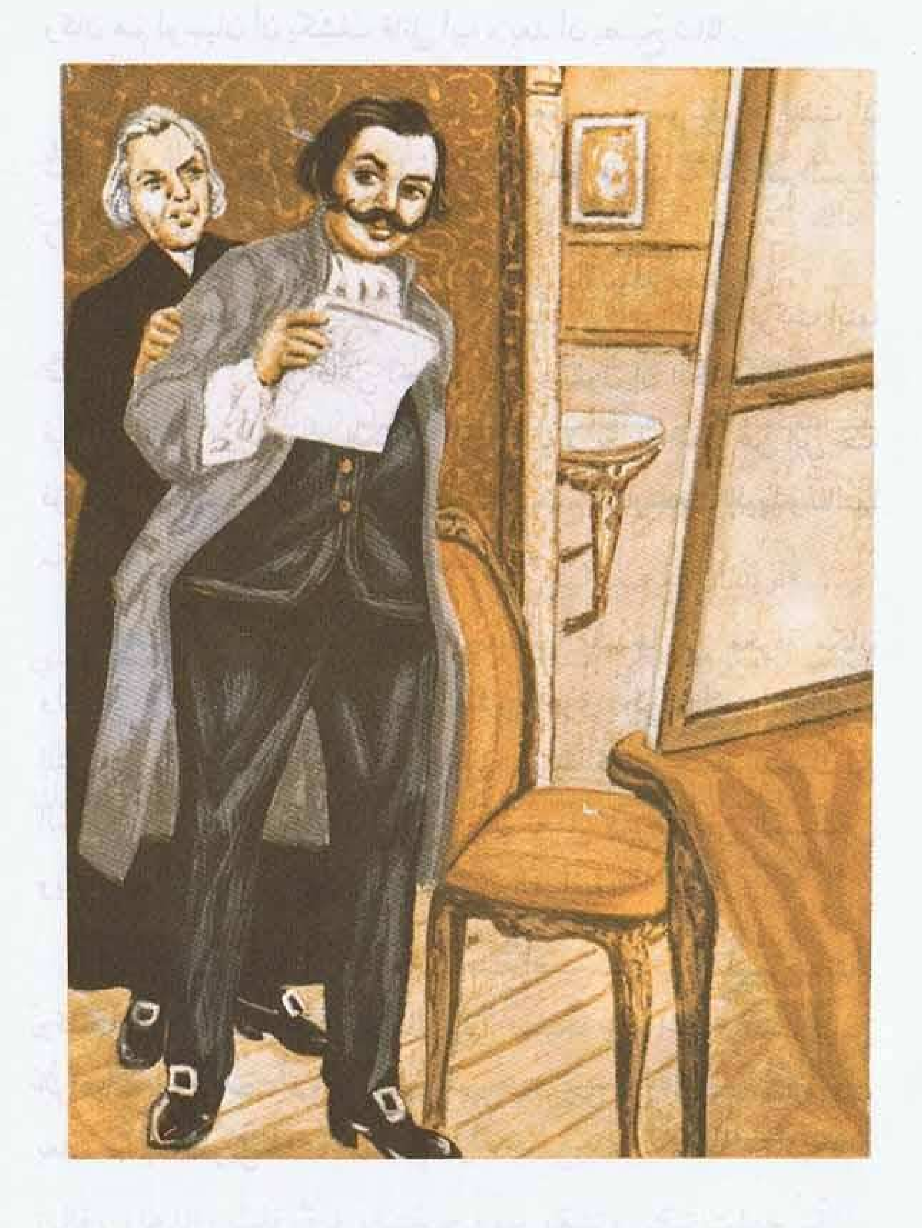
مضت تسعُ سنواتٍ على حوادثِ القصّة التي ذكرناها. وفي الخامسِ من تشرينَ الثاني عامَ ١٨٧٠ توفي كاهن شيفري الذي لجأتْ إليه حنّة عند فرارها. وكانت أختُ الكاهن قد تُوفّيَت وجعلت جورج وريثَها، والرسّامَ الذي كان موجوداً ساعةَ القبضِ على حنّة، وصيًّا عليه. وكذلك فعل الكاهنُ في وصيّته.

وأعطى الكاهنُ الرسّام كتاباً أوصاه بأن يسلّمه إلى جورج عندما يبلغ الخامسةَ والعشرينَ، وفيه حقيقةُ تبنّيه. وأوصى الرسّام أن يبيعَ جميعَ موجوداته، إلا المكتبةَ التي أوصى بها لجورج.

وفي اليومِ نفسه الذي مات فيه الكاهنُ، ماتت نومي هرمان، زوجةُ جاك تاركة له بنتاً في الثامنةِ من عمرها، هزيلةً تشكو من مرضٍ صدريّ. أما أوفيد فلم يَبُحْ لجاك بشيء مما يعرفه عنه، وظلّ جاك يقدّمُ إليه المساعداتِ الماليّة، التي كان يُنفقها أوفيد على موائدِ القمار.

أما ابنُ جيل لابرو الذي ربي عند عمّته، فقد أُدخلَ إلى المدرسةِ حيثُ صادقَ جورج، ابن حنّة فورتيه، دون أن يعرف أحدُهما بحقيقةِ الآخر.

كان ابنُ جيل لابرو يُدعى لوسيان. وكان قد سمع من عمّته قصّةَ قتلِ أبيه، وأقنعته عمّتُه أن حنّة فورتيه لا يمكنُ أن تكونَ هي القاتلة.



وأعطى الكاهن الرسّام كتاباً ليسلّمه إلى جورج

وكان همّ لوسيان أن يكشفَ قاتل أبيه، بعد أن يصبحَ شابًا.

أما حنّة فورتيه، فكانت قد أصيبتْ بعوارضَ جنونيّةٍ، ما لبثت أن شُفيت منها واستعادتْ ذاكرتَها، وتذكّرت أنّها محكومةٌ بجرائمِ السّرِقَةِ والقتلِ والحرق.

ولمّا أُرجعت إلى السّجن أرسلتْ رسالةً للكاهنِ الذي تركت ابنها عنده، فوصلها ردّ من كاهنٍ آخرَ في القريةِ يقولُ إن الكاهنَ الذي كان قبلَه قد مات، وإنه ـ أي الكاهنُ الجديد ـ لا يعرفُ شيئاً عن ابنِ حنّة فورتيه. ثم أرسلتْ رسالةً أخرى إلى المُرضِع، فأُرجعت إليها رسالتُها مكتوباً عليها: «المُرسَل إليه غيرُ معروف».

وكادت حنّة تجنّ عندما لم تجدْ أثراً يُفيدُها في معرفة مكانِ ولديها. وأقامت في السّجن سَبع سنينَ أخرى، فوق السنواتِ التسعِ التي قضتْها في مصحّ الأمراضِ العقليّة. ولمّا كانت حَسَنَةَ السلوك في السّجن، اقترح عليها مديرُ السّجن أن تعملَ ممرّضةً في المستشفى ويكونَ لها راتبٌ شهريّ، وتكونَ تحتَ المراقبة.

قبلت حنّة بهذا الاقتراح، وبعد سنةٍ أصبحت رئيسةً للممرّضات. وكانت تفكّر في طريقةٍ للهرب. وفي صبيحة يومِ أحدٍ ارتدت لباسَ الراهباتِ، واندسّت في صفوفهن حين يخرجن إلى الكنيسة، وهربت بعد سجنها الطويل.

١٢ ـ بول هرمان وابنته في فرنسا

لنرجعْ أربعةَ أشهرٍ إلى الوراء، ولنذهبْ إلى نيويورك. لقد كان جاك بلغَ الثالثةَ والخمسينَ، وكانت ابنتُه ماري قد بلغتِ الثامنةَ عشرةَ، ولازمتها علّتُها الصدريّةُ.

وكانت يوماً جالسةً مع أبيها وسوليفو، الذي كان جاك قد تظاهرَ بقرابته أمامَ الناس، فقالت لأبيها: «كم تبلغ ثروتُك يا والدي»؟

فذُهل جاك وسوليفو، ثم قال الأوّل: «ولمَ هذا السؤالُ يا ابنتي»؟

ـ «أريدُ أن أعرفَ، ليس إلا».

ـ «إن ثروتي هي عشرةُ ملايين ريال، يُضاف إليها المعملُ الذي يُساوي مليوناً واحداً».

ـ «إنك يا أبي غنيّ جدًا. وكم أودّ أن تبيعَ المعملَ، وتنقلَ ثروتكَ إلى فرنسا».

ـ «ولكن..».

فقاطعته قائلة: «إن بقيتُ هنا يا والدي سأموتُ ضَجَراً. أما باريسُ ففيها من السّحرِ ما يُنسيني مرضي، وما يجعلُني أحبّ الحياة. أريد أن تصفّيَ أعمالَك هنا، وتَبيع المعملَ، وتُنشىء معملاً آخرَ هناك».

ثم جعلت تبكي وتشكو سوء صحّتها، فرقّ قلبُ والدِها، وقال: «اطمئنّي يا ابنتي.. سنذهبُ إلى باريس».

فقبَلتِ الفتاةُ أباها وانطلقت تُغنّي فَرِحَة.

أما أوفيد فقد اختلى بجاك وقال له: «أحقًّا تريدُ أن ترجع إلى فرنسا»؟

ـ «لقد وعدتُها وانتهى الأمر».

ـ «أما أنا فلن أذهبَ إلى هناك، فإن البوليسَ سيقضي عليّ حتماً».

ـ «لقد سقط الحقّ عنك بمرور الزمن».

ـ «وإن يكن.. وما عليك إلا أن تهبَني المعملَ، ومعه خمسونَ ألف ريالٍ، حتى أديرَه.. كل ذلك مقابلَ سُكوتي عنك». وهنا نهض جاك صارخاً: «أي سكوتٍ تعني»؟

ـ «كفى نفاقاً يا بول هرمان، بل يا جاك جيرود. أتحسَبُ أني أجهلُ جرائمك وانتحالَك شخصيّة ابن خالي؟ إن هناك امرأة بائسة مسجونةً لجريمة أنتَ اقترفتَها».

فحاول جاك تمالُكَ أعصابه، وقال: «وإن يكن ما قلتَه صحيحاً، فإن العقابَ يسقُط لمرور الزمن عليه».

ـ «صحيح، ولكن انتحالَ الشخصيّة جرم لا يسقط عقابُه بمرور الزمن..».

وزمجر جاك غاضِباً وقال: «سأقتُلُك»!

فقال أوفيد ببرود: «وهذا لن ينفعك البتة.. فلقد كتبتُ وصيّتي

وأودعتُها عند المحامي، وفيها البراهينُ القاطعةُ على أعمالك».

فوافق جاك جيرود مرغَماً وأصبح أوفيد صاحبَ المعمل.

١٣ ـ جورج المحامي

اشترى جاك قَصراً في باريسَ، وفتحَ أبوابَه للزائرينَ وللحفلات. وأخذ يبحثُ عن أرضٍ ليبني عليها مَعملاً، فلما وجدها واشتراها نشأت بعضُ المشكلاتِ القانونيّةِ حولَها، فأرشدَه أحدُهم إلى محامٍ شابّ بارعٍ اسمُه جورج داريه.

وذهب جاك إلى هذا المحامي دون أن يعلمَ أنه ابنُ حنّة فورتيه التي دفعتْ ثمنَ جريمته هو.

ودخل جاك إلى مكتبِ المحامي الذي كانت فيه المكتبةُ التي تركَها له الكاهنُ، وقد وضعَ عليها جوادَه الخشبيّ القديمَ الذي قيل له إنه تَذكار من أمّه، أخت الكاهن، لأنه لم يكنْ يعلمُ أنّه ابنُ حنّة فورتيه.

وقبل جورج أن يتولّى قضيّة بول هرمان، وبعد شهر كَسَبا القضيّة.

١٤ ـ لوسي ولوسيان

كانت ماري، ابنةُ بول هرمان، تحبّ ارتداء الملابس الفاخرةِ. وكانت الخيّاطةُ التي تتعاملُ معها تُدعى مدام أوغستين، وكانت تُرسلُ لها فتاةً اسمُها لوسي لتسليمها ملابسها.

كانت لوسي تعيشُ وحيدةً في غرفةٍ في جزيرةِ سانت لويس. وكانت تُصرّ على العملِ في غرفتها، لا في معملِ الخياطة. وكانت تحبّ شابًا اسمُه لوسيان لابرو، وهو ابنُ جيل لابرو الذي قتلهُ جاك جيرود. أما لوسي، فلم تكنْ تعرفُ عن نفسها إلا أنّ مُرضِعاً جاءت بها إلى ملجأ الأطفال، وهي تبلغُ السّنة والنصف من العمرِ، وأنها ترعرعتْ في الملجأ، حتى خرجتْ منه شابةً، وعملت بالخياطةِ: لقد كانت ابنةَ حنّة فورتيه، دون أن تعلمَ بذلك.

وكان لوسيان يعملُ رسّاماً، وكان دخلُه قليلاً، فلم يستطع أن يُقدِمَ على الزواجِ بلوسي، وكان قد طلبَ المعونة من أصدقائه فتنكّروا له. لكنّ لوسي اقترحتْ عليه أن يطلبَ مساعدةَ صديقه القديمِ جورج داريه الذي كانَ من أوفى أصدقاء لوسيان.

وبحث لوسيان عن مكتبِ المحامي جورج داريه، صديقه القديمِ، فلما عثرَ عليه قَصَدَه.

كان جورج في تلكَ اللحظةِ يستقبلُ الوصيَّ عليه، أي إتيان، الرسّامَ الذي كان مع الكاهنِ وأخته عندما ألقي القبضُ على حنّة. وكان الرسّامُ يطلب من جورج أن يعيره حصانه الخشبيَّ القديمَ، ليستعينَ به على رسم منظرِ المَرأةِ، وابنها، عندما قبضَ عليها الجنود. لكنّه لم يُخبرْ جورج بأنّه ابنُ تلكَ المرأة.

وظنَّ جورج أن الحادِثَةَ لم تقع فعلاً، ولكنّها من أفكارِ الرسّامِ وخيالاته. لكن الرسّامَ أكّدَ له وقوعَ هذه الحادِثة، وأخبرَه بأن المرأة

اتُّهمتْ بالقتلِ والسّرِقةِ والحَرْق، وأنها حُكمَتْ بالسّجنِ المؤبّد.

وفي هذه الأثناء دخل لوسيان إلى مكتبِ جورج، وتعانقا، وعرّفَه جورج بالوصيّ عليه، ثم قال جورج: «لعلّك أصبحتَ الآن رئيساً لأحد المصانع».

ـ «كلّا يا صديقي. إنني أنسَخُ رسومَ الآلاتِ للشركاتِ، لأعيشَ بها.. وقد قصدتُ كثيراً من أصدقائي للمساعدةِ، لكنّهم تنكّروا لي... إنني قليلُ الحظّ، ولو لم أكن كذلك لما قُتِلَ أبي وحُرِقَ معملُه».

ـ «لقد كان يجب أن تقصِدني للمساعدةِ قبلَ الآن، فأنا صديقُكَ الحميم، ومن واجبي أن أساعدَك.. وأرجو أن أوفّق في تعيينك مديراً لمعملٍ خاصٍ بالسّكك الحديديّة».

ـ «أصحيح هذا»؟

ـ «سأسعى لذلكَ مع بول هرمان».

ـ «أهو بول هرمان المخترعُ العظيم»؟

ـ «نعم.. وأرجو أن يحالفَني الحظّ في إقناعه بتوظيفك في معمله مديراً».

وبعد قليلٍ تدخّل إتيان الرسّامُ، وقد استنتجَ أنّ لوسيان هو ابنُ جيل لابرو، فقال للوسيان: «ماذا حدث لقاتلةِ أبيك»؟

ـ «أظنّ أنّها مسجونةٌ مدى الحياة. . لكنني أعتقدُ أنّها بريئة». .

ـ «ولكن الجريمة كانت ثابتةً عليها»!

ـ «هذا ما يقولُه القُضاة. أما أنا وعمّتي فنعتقدُ أن نائبَ رئيسِ المعملِ، جاك جيرود، هو القاتلُ الحقيقيّ».

ـ «لكنّه ماتَ شهيدَ الإخلاص».

ـ «ليس هذا أكيداً. . إن همّي الآن مُنْصَبّ على التأكّدِ من أنّه لم يمت. وبعد ذلك سأنتقمُ لوالدي».

وبقي لوسيان عند جورج بعضَ الوقت، ثم خرج شاكراً مساعدةَ جورج له، بعد أن تحدّثا عن أمورٍ كثيرةٍ كالحُبّ، وبعد أن أخبرَه لوسيان بحبّه الطاهرِ للوسي.

أما الرسّامُ فكان يفكّرْ في نفسه: أيمكنُ أن يكونَ ابنُ القتيلِ صديقاً لابنِ القاتلة؟!

وأمّا لوسي، فقد كادتْ تطيرُ من الفَرَحِ عندما أخبرها لوسيان بمسعى جورج مع بول هرمان لتعيينه مديراً للمعمل.

١٥ـ بائعة الخبز

حالَما فرّت حنّة فورتيه من المُستشفى، غيّرتْ زِيّها وتوجّهت إلى قريةِ شفري.

لم تكن خائفةً من أن يعرفَها أحدٌ هناك، فقد تغيّرَ مظهرُها تغيّراً شبهَ

كلّيّ في العشرينَ سنةً التي قضتْها في السّجنِ والعذاب.

وتوجّهتْ إلى بيتِ كاهنِ القريةِ الجديدِ، فادّعت أن امرأةً كلّفتْها الاستفسار عن الكاهنِ السّابقِ وولدٍ تركتْه أمّه عندَه حينما قُبض عليها في منزله. لكنّ الكاهنَ قال لها إنه لا يعرفُ الولد ذاك، فسألته عن اسم الرسّام فلم يعرفْه، وأخبرَها أن أختَ الكاهن قد ماتتْ، وكذلك الكاهنُ، وأن ابنَ أختِ الكاهن حضر مأتَمَ خاله في القرية.

واضطربت حنّة حين سمعت أقوالَ الكاهن، إذ لم يعدْ لها سبيلٌ لمعرفةِ مكانِ ابنها. ولكنّها صارتْ شبهَ واثقة من أنَّ أختَ الكاهن تولّتْ تربيةَ ابنها جورج.

وفي اليومِ التالي قررتْ البحثَ عن ابنتها لوسي، فذهبتْ إلى قريةِ جواني، ولكنّها فوجئتْ بمنزلِ المُرضِعِ مهدّماً. ولمّا سألَت إحدى الجاراتِ عنها أخبرتْها أنّ المُرضِعَ قد ماتت. ثم قالت حنّة: «ولكن أتعرفينَ مصيرَ فتاةٍ صغيرة تركتْها أمّها عند المرضِع، ثم انقطعتْ عن دفعِ ما يتوجَّبُ عليها للمرضع»؟

ـ «وهل ذلك من عهدٍ بعيد»؟

ـ «منذ اثنتينِ وعشرينَ سنة».

ـ «لم أكن في ذلكَ الوقتِ مقيمةً هنا. وبإمكانكِ أن تسألي إدارةَ الشُرطةِ عن أسماء الفتياتِ اللواتي وُضِعْنَ في الملاجىء في تلكَ السّنة».

فشكرتها حنّة، لكنها خافتْ أن تسألَ إدارة الشرطةِ، وأخذت تسألُ سُكّان القرْيةِ، فلم يُفيدوها شيئاً عن ابنتها. ورَجَعت في اليوم الثّاني إلى باريسَ قانطةً، وأخذتْ تبحثُ عن عملٍ تعيشُ منه.

وبعد يومينِ وجدتْ حنّة عملاً في مخبز: كان عليها أن توصِلَ الخبزَ إلى المنازل. وكانت أجرتُها ثلاثةَ فرنكات ونصف الفرنكِ في اليوم، مع رغيفينِ من الخبز. وادّعت حنّة أن اسمَها هو ليزا بيرين.

وتشاء الصّدفة أن تكون لوسي، ابنتُها، من زبائنِ المخبزِ المذكور. ولم تكن أيّ من الأمّ أو البنتِ تعرِفُ الأخرى. ولكنّ لوسي كانت تلاطفُ حنّة كثيراً، كما كانت حنّة تجالسُ لوسي وتراقبُها وهي تُخيط ملابس الأغنياء.

١٦ـ مساعي جورج داريه

كان جورج داريه صادِقاً فيما وعد لوسيان به. ففي اليومِ التالي لزيارةِ لوسيان له، ذهبَ جورج إلى منزلِ بول هرمان. لكن بول كان مسافراً، فالتقى جورج بابنته التي كان أبوها قد حدّثها عن براعةِ جورج.

وأخبرها جورج بأمرِ صديقه لوسيان، وأثنى على نشاطه وكفاءته، فقالت ماري له: «إنّ من دواعي سعادتي أن أساعدَكَ على نجاحِ مساعيكَ لخدمة صديقك هذا... وأنا أضمنُ له الفوزَ بالمنصِب».

فشكرها جورج جزيلَ الشّكرِ، وذهب توًا إلى مكتبه، فأرسلَ كتاباً إلى لوسيان يطمئنُه فيه إلى الأمر. فلما بلغ الكتابَ لوسيان، أسرع إلى لوسي وأخبرَها بمضمونه، ففرحت فَرَحاً لا يوصف. ولم تكُنْ لوسي من أهلِ الفُضولِ فلم تسألْ لوسيان عن اسم صاحبِ المعمل.

وفي اليوم التالي ذهبتْ لوسي إلى منزلِ ماري لتقيسَ ثوبَها الجديد. وبعد أن فَرَغَتْ لوسي من ذلك، دعتْها ماري للجلوسِ، وسألتْها: «هل تعيشينَ مع أهلك أم في محلّ الخياطة»؟

ـ «بل إنني يا سيّدتي أعيشُ بمُفردي، إذ لا أهل لي، فأنا ربيتُ في الملجأ مذ كان عمري عاماً واحداً».

ـ «ولكنْ ألا تعرفينَ مَن وَضَعَكِ في الملجأ»؟

ـ «لقد أخبرني مديرُ الملجأ أن الذين سلّموني إليه أخبروه بقصّتي، لكنّ قانونَ الملاجىء يمنعُهم من أن يخبروني بهذه الحقيقة. وهم يحتفظونَ بهذا السّرّ حتى إذا سُئلوا عنه، ولو بعدَ أعوامٍ، سهّل عليهم معرفةَ الأهلِ الحقيقيين».

فأشفقتْ ماري على هذه الفتاةِ المسكينةِ، وحاولت أن تغيّر مجرى الحديثِ، فقالت: «إنّك جميلةٌ يا لوسي، كما أنّكِ بارعةٌ في الخياطةِ، ولا بُدّ أن تجدي فَتى أحلامك الذي يُنسيك كلَّ ما قاسيت».

فاحمرّت وجنتا لوسي وقالت: «لعلّي وجدتُ هذا الفتى. فإن هناكَ شابًا يُحبّني، وينتظرُ أن تتحسّن أحوالُه حتى يتزوّجني».

وفاجأ السعالُ ماري، فوضعتْ منديلَها على فمها، فإذا به ملطَّخٌ بالدم.

أما لوسي فاستأذنَت ماري بالانصرافِ، فشيّعتها ماري إلى البابِ، وقالت: «أودّ أن أزورَكِ في غرفتك يا لوسي، فهل تمانعين»؟

ثم أعطتها عنوانَها (شارع بوربون ـ الرقم ٩)، وانصرفت.

وفي اليوم التالي رجعَ جاك جيرود من سَفَرِه، ودبّر جورج لقاء للوسيان مع جاك جيرود.

وفي يومِ اللقاء، تأنّق لوسيان، وودّع لوسي، قائلاً إنّه سيذهبُ إلى منزلِ بول هرمان للبحثِ في توظيفه، فأخبرته لوسي بمعرفتها لماري، ابنةِ بول هرمان.

واستقبلت ماري لوسيان، فأعجبَها جمالُه، وتوسّمتْ فيه الخير. ثم انضمّ والدُها إليهما، فعرّفته به. ثم قال جاك: «إنك تطلب منصبَ إدارةِ المعملِ الجديد، أليسَ كذلك»؟

ـ «نعم يا سيّدي».

ـ «وما هي مؤهلاتُك»؟

ـ «إني أصوّرُ رسومَ الآلاتِ، كما إني ألمّ بميكانيك السّكك الحديديّة».

ـ «وما اسمُك»؟

ـ «لوسيان لابرو، من فورتفيل».

ووقعتْ هذه الكلماتُ وَقْعَ الصّاعقة على جاك. وهنا قالت ابنتُه: «إن جورج المحامي قد أوصاني به، فهو شابٌ نشيطٌ، لكنّه ضحيةُ مأساةٍ، فقد قُتلَ أبوه وحُرِق معمله».

فتمالك جاك أعصابه وقال: «لقد تذكّرت.. لقد كانت القاتلةُ تُدعى حنّة فورتيه».

ـ «هذا ما قاله القضاةُ، لكنّني أظنّ أنّها بريئة».

ـ «ومن تتّهم إذاً؟»

ـ «كانت عمّتي قد أخبرتْني أنها تَشُكُّ في جاك جيرود، نائبِ رئيسِ المعمل. وكان قد أرسلَ رسالةً إلى حنّة، وفيها دليلٌ على جريمته».

فاضطرب جاك مرّةً أخرى، ثم قال: «وما حلّ بتلك الرسالة»؟

ـ «لقد ضاعتْ للأسفِ يا سيّدي».

فقال جاك وقد دخلتِ الطمأنينةُ إلى نفسه: «إن هذا أمرٌ مؤسفٌ حقًّا.. ولكن هل لك أن تُخبرَني بالفائدةِ التي تراها من كَشْفِ القاتلِ الحقيقي»؟

ـ «قد ينجو جاك جيرود من المحكمة. ولكن فضْحَ أمره سيكونُ أكبر انتقامٍ منه، لأنه لا بدّ أن يكونَ الآنَ غنيًّا وذا عائلةٍ محترمة، بعد أن سرَق اختراعَ أبي».

وأخذ جاك يفكّر في نفسه بأمر هذا الشاب. فهل يجبُ أن يتخلّص منه؟ لكنّه قرّر أن من الحكمةِ أن يكونَ مسيطراً على هذا الشابّ، مراقباً لأعماله جميعاً. ولذلك وافق على تعيينه مديراً لمعمله، براتبٍ قَدْرُه ألفُ فَرَنْكٍ في الشّهر.

ولما عَلِمَتْ ماري بموافقةِ أبيها على تعيينِ لوسيان مديراً، لم تقدرْ أن تخفيَ دُموعَ الفَرحةِ التي شَعرتْ بها. وتقدّمتْ نحو لوسيان، ودعتْهُ إلى تناوُل الغداء في بيتها في اليومِ التالي، فقبلَ بعدَ إلحاحها.

وبعد انصراف لوسيان أعربت لأبيها عن شدّة سرورِها بتوظيف لوسيان. وعصفتِ الخواطرُ في ذهنِ جاك جيرود حين أحسّ أن ابنته تميلُ إلى لوسيان، ابنِ جيل لابرو.

١١ـ حنة تقيم بجوار لوسي

كانت لوسي في غرفتها مع حنّة فورتيه، حينَما كان لوسيان عند بول هرمان.

وكانت حنّة تنظرُ إلى لوسي نظراتٍ ملؤها الحنانُ، دون أن تعرفَ سبباً لذلك. والواقعُ أن لوسي كانت تعاملُ حنّة معامَلَةً طيّبَةً، فقد كانت تَخيطُ لها بعضَ ملابسها دون مقابل.

وخطر لحنّة أن تعرفَ شيئاً عن حياةِ لوسي، فسألتْها: «أين تعلّمتِ الخياطةَ يا لوسي»؟

ـ «في الملجأ الذي نشأتُ فيه».

فارتعدت حنّة وقالت: «هل نشأتِ في ملجأ»؟

ـ «نعم! فأنا لا أعرفُ أبي أو أمي، فقد وُضعتُ في الملجأ منذ إحدى وعشرينَ سنةً، وكان عمري عندئذٍ عاماً ونصفَ العام».

فأخذت حنّة تفكّر في نفسها قائلةً: أيمكن أن تكونَ لوسي هي ابنتي؟

ثم سألتها حنّة: «ومن سمّاكِ بلوسي»؟

ـ «قيل لي إني وُضعتُ في الملجأ يومَ عيد القدّيسة لوسي، فسُمّيتُ باسمها».

وهنا قالت حنّة في نفسها: إذاً هي ليستِ ابنتي. ثم إن هناكَ آلاف الفتيات اللواتي يحملن اسم لوسي.

وهنا دخل لوسيان، وأخبر لوسي عن وظيفته الجديدة، ففرحتْ فرحاً لا يوصف. ثمّ قالت لوسي لحنّة: «لا شك أنّك تعرفينَ هذا الشابّ، وإن كنتُ لم أخبرْكِ باسمه. إنه يُدعى لوسيان لابرو».

فارتعشت حنّة وسألته: «وما اسمُ والدك»؟

ـ «جيل لابرو، وقد قُتلَ منذ إحدى وعشرينَ سنةً في حريقٍ في معمله».

فقالت حنّة محاوِلةً أن تتمالكَ أعصابَها: «أذكرُ أنّ امرأةً اتُّهمَتْ بقتله».

ـ «نعم. . ولكنّ قلبي يحدّثني أنها قد تكونُ بريئةً. وأنَّ نائب رئيسِ المعملِ هو القاتلُ الحقيقي».

ـ «ولكنّه ماتَ حرقاً. . ».

ـ «لا أظنّ هذا. فهذه حيلةٌ قد تكون مكّنَتْهُ من الهَرَب».

ـ «قد تكونُ المرأةُ المتّهَمَةُ ميْتة».

ـ «إنني أبحثُ عنها بمعاونةِ صديقٍ محامٍ».

وكادت حنّة تكشفُ سرّها، لكنّها رأت أن الحكمةَ تقتضي تكتّماً أطول. ثمّ قالت: «لقد كان للمتّهمة ولدانِ، فما حلّ بهما»؟

ـ «لا أعلمُ يا سيّدتي».

فسكتت حنّة خوفاً من افتضاحِ أمرِها.

ثم أخبر لوسيان فتاتَه أنّه سيترُكُ منزلَه القريبَ من منزلِها، ليسكنَ في منزلٍ قريبٍ من منزلِ بول هرمان. فوافقت مرغَمَةً. وطلبت حنّة من لوسيان أن يأذَنَ لها باستئجارِ منزِله، فوافقَ مسروراً لأن حنّة ستكون قريبةً من لوسي أثناء غيابه.

١٨ـ حب من طرف واحد

كانت ماري تتذرّعُ بمختلفِ الحُجَجِ للتقرّب من لوسيان، وكانت تطلُبُ منه أن يَقضيَ كل يـومِ أحدٍ في منزِلها. وبدأ لوسيان يلاحظُ اهتمامَها به، وحبّها له، فحزنَ لهذهِ المسكينةِ المريضةِ، وهو يعلمُ أن

حبّه للوسي لا يفوقُه حبّ في نفسه.

ودعا جورج داريه صديقَه لوسيان إلى الطعامِ في يوم أحد. فلبّى لوسيان الدعـوةَ، شاكراً جورج على مساعيه الموفّقَةِ لمساعدته.

وبعد تناوُلِ الطعامِ أخبرَ جورج صديقه بنتائج استعلاماته عن حنّة فورتيه، فقال: «علمـتُ أنها بقيتْ في مَصَحّ للأمراضِ العقليّة مدةَ عشرِ سنينَ، ثم نُقلتْ إلى مُستشفىً لتعمَلَ ممرّضةً، بعد أن شُفيتْ، فتنكّرتْ بلباسِ راهبةٍ وهربت».

ـ «ألم يظفروا بها»؟

ـ «لا. غير أن أوصافَها موزَّعَةٌ على جميعِ المخافر».

ـ «مسكينةٌ هذه المخلوقة. . لقد حدَّثتني عنها بائعةُ خُبزٍ تدعى ليزا بيرين وقالت إنه كان لها ولدان».

ـ «على أيّةِ حال، ألا تزال مصمّماً على إعادةِ بناء معملِ والدِك على أرضِهِ نفسها»؟

ـ «بالتأكيد. وسأبدأ بهذا المشروعِ حالما أجمعُ مبلغاً محترَماً من راتبي الشهريّ».

وفي المساء زار لوسيان حبيبتَه لوسي، وكانت عندها حنّة التي لم تَعُدْ تفارِقُها، بعد أن تعلّقت كلّ منهما بالأخرى.

وقال لوسيان لحنّة: «لقد علمتُ أن المرأةَ المتّهَمَةَ بقتلِ أبي قد هربتْ من السّجن».

فارتعشتْ حنّة وقالت: «إذاً صارتْ طليقة».

ـ «لكن عهدَ فرارها لن يطولَ، فأوصافُها موزَّعَةٌ على جميعِ المخافر».

وهنا أدركتْ حنّة أن عليها أن تزدادَ حَذَراً وانتباهاً.

وإذا عُدنا إلى منزلِ هرمان، وجدنا ماري جالسَةً مع أبيها، وقد قرّرت أن تُخبرَه بحبّها للوسيان. فقد كانت المسكينةُ تشعرُ أنّ لوسيان يتهرّبُ منها، لكنها أخذتْ تتلمّسُ له الأعذارَ فتقولُ في نفسها إنّه يخجلُ من أن يبادِلَها الحبَّ، لما بينهما من الفوارقِ الاجتماعيّةِ والطبقيّة.

قالت ماري: «لقد بلغتُ الآنَ من العمرِ تسعَ عشرةَ سنة. وأنا سعيدةٌ بحبّكَ لي، ولكنّ نفسي بحاجة إلى نوع آخرَ من الحبّ.. ألم يخطرْ لك أن تزوّجَني يا أبي»؟

ـ «بل إنّ هذا ما أسعى إليه. فقد خصّصْتُ لكِ قسماً كبيراً من ثَروتي، راجياً أن أجدَ الشّخصَ النبيلَ السيّدَ الذي يَصْلُحُ لك».

ـ «وما الفائدةُ من النُبلِ والسّيادَة؟ أنا أكتفي بالشخص الذي يُحبّني، دون أن يكونَ من طَبَقَةِ النبلاء بالضرورة».

فأيقن بول هرمان ما تعنيه ابنتُه، وحاول أن يغيّر موضوعَ الحديث فقال: «منذ زمن بعيد لم أزُرْ جورج داريه المحامي. فهل تودّينَ مرافقَتي في زيارته»؟

ووافقت ماري على اقتراحِ أبيها، ظنّاً منها أن والدَها سيبحثُ موضوعَ زواجها من لوسيان مع جورج.

وبعد قليلٍ كان بول وابنتُه عند جورج، الذي كان إتيان الرسّامُ عنده. ودارت الأحاديثُ بين الموجودينَ حتى ذُكرَ لوسيان، فقال جورج: «مسكينٌ لوسيان.. لقد ذهبَ ضحيةَ قتلِ أبيه».

فارتعشتْ ماري وقالت: «عمَّ تتحدّثون»؟

فقال والدُها: «لم أخبرْكِ يا ابنتي أن والدَ لوسيان قُتلَ وحُرِقَ معملُه، فربيَ ابنُه يتيماً فقيراً».

ـ «ولكنْ من الجاني يا أبي»؟

فقال بول محاوِلاً أن لا يفقد أعصابَه: «إنها امرأةٌ كانت تعملُ حارِسةً لمعمله».

فتدخّل جورج قائلاً: «ولعلّها مظلومةٌ، كما يعتقد لوسيان، بناءً على رأيِ عمّته. ولقد علمتُ أن هذه المرأةَ فرّتْ من سجنها وأصبحتْ طليقة وهي لا بدَّ تبحثُ عن القاتلِ الحقيقيّ».

وهنا اصفرَّ وجهُ بول، وخاف أن يكونَ فرار حنّة سبباً في افتضاح أمرِه. ثم قال: «ولنفترِض أن لوسيان عرَف قاتلَ والده، فكيف سينتقمُ منه وقد مرَّ الزمنُ على جريمته»؟

فقال جورج: «لا شكَّ أن للقاتلِ الآن ثروةً كبيرةً بفضلِ اختراعِ والدِ لوسيان، وأنّه قد انتحلَ اسماً مستعاراً فالانتقامُ يكونُ أشدّ في هذه

الحالةِ، عندما يفقدُ الناس ثقتَهُم بهذا الرجلِ الذي لن يجدَ وسيلةً للخلاصِ إلا الانتحار».

وقالت ماري: «أرجو أن يوفّق لوسيان في انتقامه من القاتل». ثم خاطبت أباها قائلة: «لقد قلتَ لي يا أبي إن أعمالَك في فرنسا قد لاقت رَواجاً لا نظيرَ له. وقد جعلتَ لوسيان مديراً لمعملك الجديدِ، فلِمَ لا تجعلُه شريكاً لك»؟

فاعترض جاك يقول: «ولكن...»

غير أن ماري قالت: «لا تعترض يا أبي، وقد ثبَت أن لوسيان من أحذقِ الناسِ في عمله».

فتدخّل جورج قائلاً: «إنّك يا آنستي ترين رأياً قد يحتاجُ والدُك إلى وقت لدراسته».

فابتسمَ جاك قائلاً: «أرأيتِ يا ماري؟! إنني أوافق مبدئيًّا على اقتراحك، لكني أحتاجُ وقتاً كافياً لأدرسَه من جميعِ جوانبه».

ثم قام جاك وابنتُه للانصراف، فأوصت ماري الرسّام على عددٍ من اللّوحاتِ، فأظهرَ سرورَه لتلبية رَغَباتها.

وبعد انصرافهما قال إتيان الرسّام: «لا أخفي عنكَ أنني لم أطمئن إلى بول هرمان. ألم ترَ أنه كان يحاولُ تغيير رأيِ ابنته في لوسيان»؟

ـ «ولكنّه يُحبّ ابنتَه، كما أنّه يرى أنّ من واجبه ألا يتسرّعَ في إشراكِ لوسيان بمعمله».

ـ «صحيحٌ.. ولكنَّ شعوري قلّما يُخطىء.. إن هذا الرجلَ قد يكونُ من أهل النشاطِ والخبرةِ، لكنّه حتماً يُضمرُ غيرَ ما يقول».

١٩ ـ أوفيد سوليفو مرة أخرى

كان بول هرمان خائفاً من نتائـج حُبِّ ابنته ماري، للوسيان ابن جيل لابرو. وازدادَ هذا الخوفُ وعَظُمَ عندما تلقّى بول رسالةً من أوفيد سوليفو يُعلمُه فيها أنّه خسرَ معملَه، بسببِ القمار، وأنه سيجيء إلى فرنسا لطَلَبِ المعونةِ منه.

وكان اضطرابُ بول عظيماً عندما كان في مكتبه يوماً، فدخلَ عليه سوليفو نفسُه، وقال: «ما لي أراكَ مندهشاً لرؤيتي يا ابن خالي العزيز؟»

وتشاءمَ بول بهذا اللقاء، وأنّبَ أوفيد على تفريطه بالمعملِ، لكنّ أوفيد قال: «لا تنسَ أن كَلِمَةً واحدةً منّي، يا ابن خالي العزيزَ، قادرةٌ على تحطيمِ حياتك».

ـ «ها قد عُدت إلى تهديدك»!

ـ «أنا لا أهدّدك.. معاذَ الله من ذلك! إنّ كلَّ ما أريدُ هو العملُ في معملك».

ـ «لن تعملَ فيه. فمديرُ المعملِ هو ابنُ الرجلِ الذي قتلتُه، وأخافُ أن تُسيء التصرّفَ وتبدرَ منكَ كلمةٌ تفضحُني».

ـ «إذاً أنتَ تعرفُ أهميّةَ سكوتي»؟

ولم يعد بول يتحمّلُ وقاحةَ أوفيد، فصرخ في وجهه قائلاً:

ـ «أنت تظُنّ أنني في قبضتك. لا يا أوفيد سوليفو... إنّك إن نطقتَ بسرّي دفعتَني إلى الانتحارِ، وبذلك لا تستفيدُ أنتَ شيئاً».

وأدركَ أوفيد معنى كلامِ بول، فعادَ إلى الهدوءِ واللطفِ، وقال: «ولكنّك لن تتخلّى عني يا بول»!

ـ «بالطبع لن أتخلّى عنك.. وسأجعلُ لك دخلاً سنويًّا مقدارُهُ اثنا عشرَ ألفَ فرنك، كما سأعطيكَ خمسةَ آلافِ فرنكٍ لتُنشىء منزِلاً في الضواحي، أزورُكَ فيه أنا عندما أشاء، فلا تأتِ أنتَ إلى المعمل».

ـ «لقد أرحتَني! وأنا في خدمتكَ دائماً».

ثم أعطاه بول نقودَه، فانصرف.

وظلَّ بول مشغولَ البال بسببِ قدومِ سوليفو. وأخذ يفكّر في نفسه أنّ ثلاثةً من الناسِ قد اجتمعوا في المدينة، وأن كلاًّ منهم يشكّلُ خطراً عليه: حنّة، وسوليفو، ولوسيان. لكنه كان يعلّل نفسَه بالقولِ إن حنّة نهايتُها السّجنُ، وإن سوليفو لن يتكلّم طالما زُوّد بالمالِ، وإن لوسيان يعتبرُ نفسَه مديناً له لتوظيفه إيّاه.

٢٠ ـ عرض زواج

جاءت ماري يوماً إلى أبيها وقالت له: «أشعرُ بألمٍ شديد ينتابني».

فاصفرَّ وجهُ بول وقال: «أهي آلامُ مرضِك الصدريّ نفسه»؟

ـ «بل إنّها آلامُ قلبي.. يا أبي.. لقد حسبتُ أنّك كنتَ تعلم. ولكن لا بأسَ من إخبارِك: فأنا أحبّ لوسيان حبًّا لا يوصَف. وقد امتزج حُبّه بدمي، فأصبحتُ لا أستطيع العيشَ بدونه. فإن أبيتَ أن تزوّجني إياه، كنتَ كمنْ يحكُمُ عليَّ بالموتِ المحتّم».

ـ «إنني مستعدٌّ لأن أفعلَ كلّ شيء تريدينه. ولكنَّ هذا الزواجَ ليس ممكناً».

فأغمضت ماري عينيها، وأخذت تتنهّد، ثم أغمي عليها. وهنا جُنّ والدها، وهبّ ينقُلُها إلى سريرِها. ولمّا استعادتْ وعيَها قال: «إنني أرضى بهذا الزواجِ إن كانت سعادتُك متعلّقةً عليه».

ـ «بل إن حياتي متعلّقةٌ عليه.. وأنا متأكّدةٌ من أنني سأعيش، وسأستعيد عافيتي، عندما تُكلّمُ لوسيان بالأمر».

وحالما اطمأنّ بول إلى صِحّةِ ابنته، ذهب إلى المعملِ والتقى بلوسيان، وقال له: «إنني معجبٌ بنشاطك وبراعتك في العمل. وأنا رجلٌ لا أقدِم على عملٍ إلا بعدَ أن أدرسَه من جميعِ جوانبه. وقد وجدتُ نفسي بحاجةٍ لرجل مثلك يكونُ شريكي في أعمالي، فهل تقبل»؟

ـ «أنا شريكُك؟ وكيف يُعقلُ ذلك»؟

ـ «إسمع يا لوسيان: أنا لم أتوصّلْ إلى الثّروةِ إلا بعدَ أن شاركتُ جيمس مورتيمر في أعماله، وبعد أن زوّجني ابنته».

فأدرك لوسيان قصدَ بول هرمان، وقال له: «أتعني أن تكونَ الآنسةُ ماري امرأتي»؟

ـ «تماماً»!

ـ «أشكرُك يا سيّدي على هذه الثّقة. ولكنني أقسمتُ أن أتزوج فتاةً غيرها»!

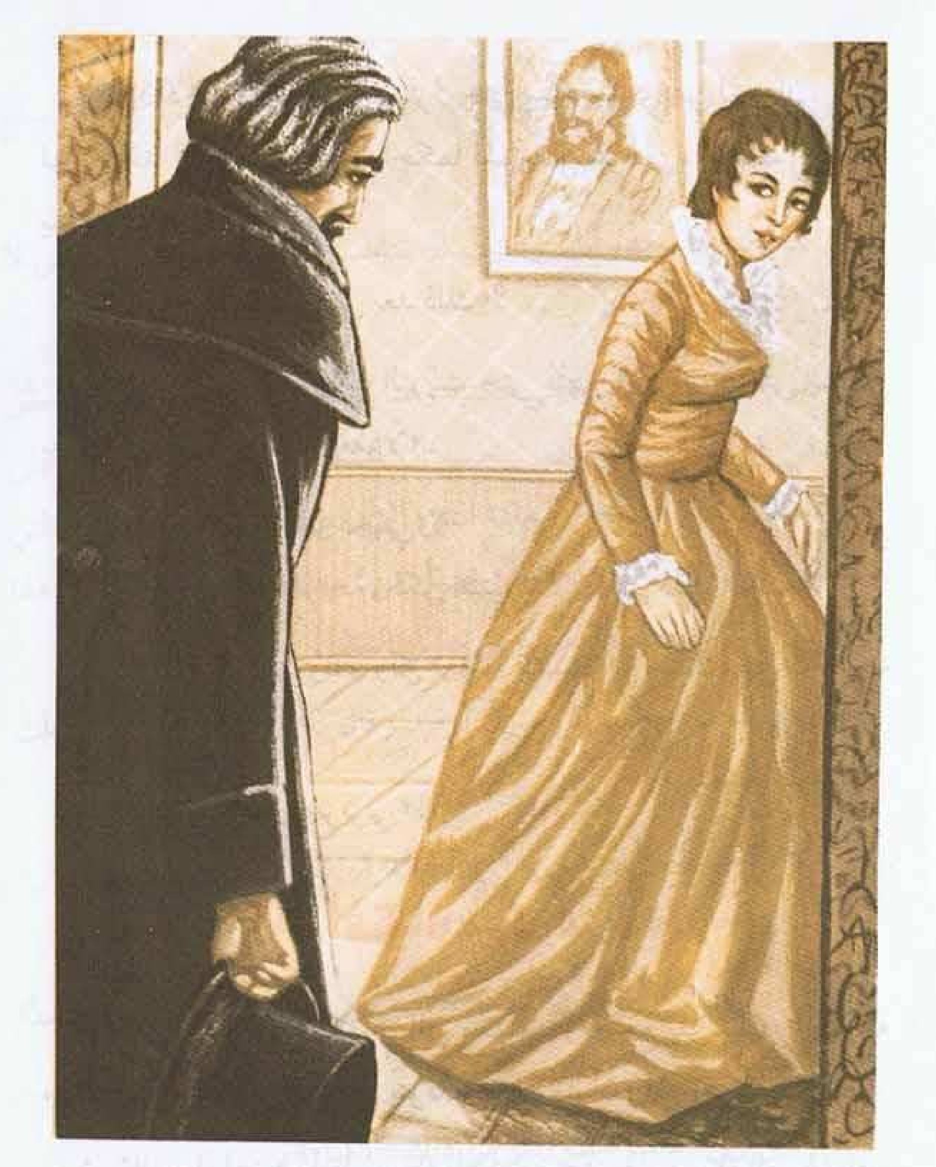
ـ «وهل فتاتُك هذه غنيّة»؟

ـ «بل هي فقيرةٌ مُعدمَة».

ـ «لاتتسرّعْ إذاً يا بُنيّ. إنّ السعادةَ أمامَك فلا ترفُضْها. إن ابنَتي تحبّك حُبًّا لا يوصف، وإخالُها ستموتُ إن رفضتَ الزواجَ بها».

فكرّر لوسيان اعتذارَه عن القَبولِ واستأذن بالانصراف. أما بول هرمان فأخذَ يقولُ في نفسه: «سيكونُ هذا الرجلُ سببَ موت ابنتي.. ولكنني سأمنعُهُ من أن يكونَ كذلك».

أما ماري فكانت في ذلكَ الوقت مع لوسي التي جاءتها لتقيسَ ثوباً جديداً لها. وما إن انصرفتْ لوسي، ووعدتها ماري بزيارتها في غرفتها، حتّى رَجَعَ بول.



وما إن دخلَ والدها إلى المنزل حتى سألته عن أمر لوسيان

وما إن دخل والدُها إلى المنزل حتى سألته ماري عن لوسيان، فقال لها: «لقد لمّحتُ له عن زواجكما فلم يقبل عَرْضي، بسببِ التفاوتِ بينكِ وبينه».

ــ «وهل رضي بالعَرضِ بعد ذلك»؟

ــ «بالتأكيد. لكنّه يؤثرُ التريّثَ حتى يُنْهي اختراعه وحتى يشتغلَ به، فيكونُ زواجُه منكِ معقولاً».

ــ «ولكن ألَمْ يَقُلْ إنه يحبّني»؟

ــ «لم يَقُلْ ذلك صراحةً، لكنّ عينيْه تدُلّانِ على ذلكَ الحب».

ــ «إذن سيظلّ يزورُنا، ولن تعاملَه كمستخدَمٍ عندَك، بل كخطيبِ ابنتك».

ــ «من غير شَكّ يا عزيزتي».

٢١ ـ أفكار بول هرمان

في اليومِ التالي ذهب بول إلى معمله، واجتمعَ بلوسيان وأظهر له مودّةً كبيرة، لم يكن لوسيان يتوقّعُها منه بعد أن رفضَ عَرَضَ الزواج.

ثم قال بول له: «سأطلُبُ منك أن تنوبَ عنّي في رحلةٍ إلى بلغراد، من أجلِ اتّفاق مع شَرِكَةٍ صناعيّةٍ هناك. وستكونُ لك مكافأةٌ قَدْرها خمسةُ آلافِ فرنك، عدا راتبك، لمدّةِ خمسةَ عشرَ يوماً ستقضيها هناك».

ــ «إنّ قيامي بهذه المهمّةِ يقعُ ضِمن واجباتي يا سيّدي، والمبلغُ كبير جدًّا».

ــ «هذا ما أريدُه أنا. وعليكَ أن تتأهّبَ للسفرِ بعدَ غدٍ. ولكن لا تنسَ أن تكتُبَ إليّ كلَّ يوم».

ثم رجع بول هرمان إلى مكتبه وصارَ يفكّرُ: الآنَ أستطيع أن أحقّقَ هدفي في غيابِ لوسيان. يجب أن أسحقَ فتاتَه سَحقاً. وأنا على استعدادٍ للقتلِ من أجلِ سعادةِ ابنتي التي لن تَتمّ إلا بموتِ الفتاةِ التي يُحبّها لوسيان.. ولن أجدَ خيراً من أوفيد سوليفو لتحقيقِ هذا الغرضِ، فإنه يفعلُ كلَّ شيء في سبيلِ المال.

وفي المساء ذهب إلى منزلِ أوفيد وقال له: «أتذكُرُ أنّكَ قلتَ إنّك مستعدّ لخدمتي»؟

ــ «وكيف أنسى وَعدي يا ابن الخال»؟

ــ «إذاً حانَ وقتُ الوفاء بوعدِك».

ــ «لو أمرتَني بإضرام حريقٍ، كحريقِ فورتفيل، لكنتُ مستعدًّا لتنفيذِه..»

ــ «بل إني أطلبُ منكَ أكثرَ من ذلك: القتل».

ــ «القتل؟ ولكنّي لا أحبّ هذا أبداً».

ــ «إن حياتي متوقّفةٌ على هذا الأمر. وإن قُضيَ عليَّ، فمن يعيلُك بعدي»؟

فأدرك أوفيد أنّ عليه أن يقبلَ بالأمر. ثم أخبرَه بول عن لوسيان لابرو، وعن حبّ ماري له، وعن رفضِه عَرضَ الزواجِ بها. ثم أخبره بأمرِ الفتاةِ التي يُحبّها لوسيان، وطلب منه أن يراقبَ لوسيان في اليومِ التالي، قبل سَفرِه، ليعرفَ منزلَ حبيبته، ثم يراقبَها ويختارَ الوقتَ المناسبَ لقَتلها. وقد قبلَ أوفيد هذه المُهمّةَ، طمعاً في الحصولِ على مَبلغٍ كبيرٍ من ورائها.

أمّا ماري، فكانتْ في ذلكَ الوقتِ تتنزَّهُ في الغابات، وهي تفكّرُ حزينةً بما أخبرَها به أبوها عن سفرِ لوسيان في اليوم التالي.

٢٢ ـ أوفيد يراقب ضحيّته

صباحَ يومِ الأحدِ، أي قبلَ يومٍ واحدٍ من سفرِ لوسيان، كان أوفيد يراقبُ لوسيان، الذي ذهبَ إلى خَطيبته لوسي يُخبرُها بسَفرِه يومَ الإثنين.

وقالت لوسي: «لا بأسَ من سَفَرك إن كان فيه نفعٌ لكَ في عملك».

ـ «أظُنّ أن الأرملةَ ليزا ستلازمُك مُدّةَ غيابي».

ـ «لن تستطيعَ ذلك، فصاحبةُ المخبز الذي تعملُ فيه مريضةٌ، وليزا مضطرّةٌ لملازمتها.. وعلى أيّة حالٍ، أرجو أن تعيشَ معَنا هذه المسكينةُ بعد زواجنا».

ـ «وهو كذلك.. غير أنّي مستاء قليلاً من تَصَرّفات بول هرمان».

ـ «ألستَ مرتاحاً في عملك مَعَه»؟

ـ «بلى، لكنّ هناكَ أموراً تزعجُني، وسأخبرُكِ بها بعد فترةٍ من الزمن».

وهنا نادتْ حارسةُ المنزل لوسي، قائلةً إن سيّدةً من النبيلات قد أتتْ لزيارتها. وبعد قليلٍ دخلتْ ماري هرمان إلى الغُرفة. وارتعشتْ حين رأتْ لوسيان هنالك، فأسرعتْ لوسي تقولُ: «إنه الشابّ الذي حدّثْتُك عنه، نحنُ متحابّان منذ عامين، وسنتزوّجُ قريباً بفضل كَرَم والدك ومحبّته للوسيان ولعمله».

ودُهشت لوسي حين لاحظت اضطرابَ زائرتها، فقالت لها: «ألا تتفضّلين بالجلوس يا سيّدتي»!

فتمالكتْ ماري أعصابَها وجلستْ، لكنها نهضتْ بعد قليلٍ تريدُ الانصرافَ، وقالتْ للوسي: «لقد ارتحتُ الآن من التعب بعد صُعودي السلّم، وعليَّ أن أذهب. أتمنّى لك حظًّا سعيداً يا لوسي». ثم نظرتْ إلى لوسيان قائلةً: «ستكون دهشةُ أبي أكبر من دَهشتي لوجودك هنا».

فقال لوسيان: «لقد أخبرتُ أباك بكلّ ما كان يتوجّبُ عليَّ أن أخبرَه به».

فقالت ماري: «حظًّا سعيداً» وانصرفت.

أما لوسيان فقال للوسي: «لا شكّ أن هذه المسكينةَ قد تَعبتْ من صُعود السُلّم». فوافقتْه لوسي الرأيَ، ثم ذهبا معاً يتنزّهان.

أما أوفيد فكان يقولُ في نفسه: «الآنَ عَرَفتُ منزل الخطيبة، وعليّ أن أتّفقَ مع بول هرمان على الخطّة التالية. ولكن ما سرّ زيارة ماري لهذا المكان»!؟

ولما رَجَعَتْ ماري إلى منزلها، دخلتْ بسُرعة إلى غرفة والدها، فَذُعِرَ لمّا رأى اضطرابَها واصفرارَ وجهها. ثمّ قالتْ له: «لقد خدعتَني يا أبي.. فأنت لم تخبرْني عن تلك الفتاة التي يُحبّها لوسيان، وينوي الزواجَ بها».

فأخذ الوالدُ يدَ ابنته في يديه وقال: «صحيحٌ أن لوسيان أخبرني عن تلكَ الفتاة، لكنّه وعدني بدراسة عَرضي، ولكني لا بدّ أن أقنعَه بالقَبول قريباً».

ـ «كم صرتُ أكرهُ هذه الفتاةَ، بل هذه اللقيطةَ التي ربيت في الملجأ، ولم يكنْ لها اسمٌ، بل كانوا يدعونها بالرقم ٩».

ـ «اطمئنّي يا ماري، فلا شكّ أن هذه اللقيطةَ هي صديقتُه لا خطيبتُه. وأنا أقسمتُ لك بأمّك أنني لن أدَعَه يتزوّج غيرك...»

فعاد شيء من الطُمأنينَة إلى نفس ماري، في حينَ أيقنَ جاك أنْ لا شيء سيثنيه عن قتل الفتاة التي تَقفُ حاجزاً دون سعادة ابنته.

وفي هذه الأثناء عاد لوسيان وخطيبتُه إلى المنزل حيث وجدا ليزا فيه، فأخبرتْهما بأن وطأةَ المَرَض قد اشتدّتْ على صاحبةِ المخبز، وأنّها ستلازِمُها في منزلها. ولكنّها وعدت لوسي بزيارتها أثناء غيابِ

لوسيان، كلّما سنحت لها الفرصة.

أما أوفيد، فقد رَجَعَ إلى منزله، وانتظر قدومَ بول هرمان. ولما قدِمَ قال له أوفيد إنه عَرَف مكانَ إقامةِ الفتاةِ، وأخبرَه بزيارةِ ماري لها، فقال بول: «إذاً هي الخيّاطةُ التي تعملُ عندَ السيّدة أوغستين في شارع سانت أونوريه».

ـ «لكنّي إن استطعتُ إخفاء لوسي، اشتكتْ عائلتُها، وبحثتِ الشرطة عنّي».

ـ «لا تَخَف، فإنها يتيمة».

ـ «عظيم! لقد هان الأمر، وسأبدأ العملَ غداً، فأبحثُ عن خطّةٍ مناسبة».

ـ «وكم يلزمُكَ من المال»؟

ـ «هاتِ عشرينَ ألفَ فرنكٍ للنفقات المستعجلة، أما حسابي الخاصّ، فسأطلُبُه بعدَ تنفيذِ الجريمة».

ـ «كن واثقاً من أني سأعطيك المبلغَ الذي تريدُه».

ثم انصرف بول، تاركاً أوفيد الذي كان واثقاً من أنه سيقيّدُ بول بقيدٍ آخرَ، غيرِ قَيدِ جريمته الأولى.

٢٣ـ خطة الجريمة

كان على أوفيد أن ينفّذ مهمّتَهُ في خلالِ أسبوعينِ أو ثلاثةٍ على الأكثر. وقد بدأ استعلاماته فوراً، فتنكّر بزيّ حمّالٍ، وراح يَطرحُ الأسئلةَ على حارسةِ المنزلِ الذي تسكنُ فيه لوسي، فعرفَ أنّها لا تذهبُ إلى معملِ الخياطة، بل تعملُ في غُرفتها.

وزيادةً في التأكّدِ ذهبَ إلى المعملِ، وسألَ فتاةً فيه عن لوسي. ولاحظ أن الفتاةَ لم تكنْ تُحبّ لوسي، لأنّها امتعضتْ من ذكرِها، فقال أوفيد في نفسه: يجبُ أن أستفيدَ من هذه الفتاة.

وفي المساء عاد أوفيد إلى المعملِ، وهو لا يزالُ يرتدي لباسَ الحمّالين. وسأل حارسةَ المعملِ عن موعدِ ذهابِ الفتياتِ، فقالت الحارسةُ: «لا شكَّ أنّكَ لا تسألُ عن هذا لنفسك». فقال: «لستُ من أهلِ الغرامِ يا سيّدتي، بل إنّي منتدَبٌ في مُهمّةٍ من قبَل نبيلٍ من النُبَلاء». ثم أخرج ديناراً وأعطاها إيّاه، فأخبرتْه أنّ الفتياتِ العاملات يخرُجن في الثامنةِ مساء، وأطلعتْه على أوصافِ الفتياتِ، فعَرفَ أن الفتاةَ التي قابَلها في المرّةِ السابقةِ تُدعى أماندا.

كانت أماندا فتاةً جميلة في الثانية والعشرينَ من العمر. وكانت تحلُم بالشخصِ الذي يخلّصُها من الفَقرِ والعمل.

وفي اليومِ التالي أخبرتِ الحارسةُ أماندا بأن نبيلًا من النبلاء أرسلَ خادمه يسألُ عنها. فسُرّت أماندا. وفي المساء خرجتْ من المعملِ، فلاحظتْ أن شخصاً يبلُغ الخمسينَ من عمرِه يتبعُها، فقالتْ في نفسها: إن كان هذا هو النبيلُ الذي سألَ عنّي قبلتُ به، على كبَرِ عُمرِه، شرط أن يخلّصني من الفَقرِ والحاجةِ إلى العمل.

وتقدّمَ الرجلُ منها، وهو أوفيد كما هو واضحٌ، وحيّاها. لكنّها قالت: «ماذا تريدُ منّي»؟

فقال: «إنّي أحبّك. ولا خوفَ على سُمعتك إنْ رافقتني، فأنا أبلُغُ الخمسينَ من العمر».

ثم دعاها للصعودِ إلى مركبته، بعد أن خاطبَها باسمها وأوهَمَها أنّه كان يحاولُ التعرّفَ إليها منذُ زمنٍ بعيد. وبعد ذلك دعاها لتناولِ العشاء، ثم أوصلَها إلى منزِلها بعربته، واتّفقَ وإيّاها على اللقاء ظُهرَ اليومِ التالي في المطعم.

وفي اليومِ التالي تناولا الطّعام معاً، ثم استأذنَتْه أماندا بالذهابِ إلى إحدى العاملاتِ لتسلّمَها ثوباً تَخيطُه، فسألها أوفيد: «وأين تسكنُ هذه العاملة»؟

ــ «في شارعِ بوربون، الرقم ٩».

فعرف أوفيد أنها ذاهبةٌ إلى بيتِ لوسي، فطلبَ منها أن يرافقَها فقبلت. وانتظرَها هو في المركبةِ، فلمّا عادتْ سألَها عن الفتاةِ التي ذهبتْ إليها، فقالتْ له إن اسمَها لوسي، ووصفَتْها له، وقالت: «إن السيّدة أوغستين تثق بها كثيراً. فمثلاً، ستذهبُ لوسي بعد غدٍ إلى

كارين دي كولومب لتجرّبَ ثوباً تَخيطُه لامرأةِ المحافظ».

ـ «وهل ستذهبُ وحدَها إلى هذا المكان البعيد»؟

ـ «سأذهبُ أنا معَها. وسنركبُ القطارَ من محطّةِ سانت لازار إلى محطّةِ غابةِ كولومب، ثم نسيرُ إلى منزلِ المحافظ عبر طريقٍ مقفرةٍ ومُخيفةٍ، ثم نرجعُ في قطارِ الساعة العاشرةِ ليلاً».

فقال أوفيد محاولاً أن يخفيَ ابتسامَةَ الظّفَر: «أشعرُ أنكِ ستتخلّصينَ قريباً من مهنةِ الخياطة، فإنها مهنةٌ مُتعبَةٌ، لا تخلو من المَخاطر».

٢٤ ـ لوسيان في بلغراد

كان لوسيان في بلغراد دائمَ التفكيرِ بخطيبته لوسي. لكنّ صورة ماري المسكينةِ لم تَغِبْ عن باله أيضاً، فكان يقولُ في نفسه: إن المروءة تقتضي أن أوهمَ هذه المسكينةَ أني أحبّها، حتى تعيشَ أيّامَها الباقيةَ سعيدة.

ثم كتب رسالةً لبول هرمان، وذيّلَها بالذيلِ التالي: «أرجو يا سيّدي أن تُبلغَ الآنسةَ ماري احترامي وإخلاصي، فأنا مَدينٌ لها بالثّقةِ العَظيمة التي طالما مَنَحَتْني إيّاها».

وكان فرحُ بول عظيماً بهذه الكلماتِ، فما إن استلمَ الرسالةَ وقرأها

حتى أطلعَ ماري على هذه الكلماتِ، وقال لها: «أظنّ أنه سينسى تلك اللقيطة».

ـ «إن قلبي يحدّثُني أنّه كتبَ هذه الكلماتِ من بابِ اللياقةِ وعرفانِ الجميل، وأنا واثقة من أنّه لا يحبّني».

ـ «أنتِ مخطئةٌ يا ماري. إنّه لا يستطيع أن يقولَ أكثرَ مما قال في رسالته. ثم إنّ تلكَ اللقيطةَ قد تمرضُ أو تموت، فيزول حبّه لها».

ـ «أنا لا أتمنّى لها ذلك، فما ذنبُها؟ غير أني سأموت إن لم يحبّني أنا»!

فطيّبَ بول خاطرَها، ثم خطّ سطوراً للوسيان يقول له فيها: «لقد كانَ لذيلِ رسالتكَ أثرٌ كبيرٌ على ماري، وأنا أشكرُكَ على عاطفتك. إن دواء ابنتي في يديك، فإن مَنَحْتَها إيّاه مَنَحْتَها الحياةَ، وإلا فإنّكَ تحكُمُ عليها بالموت».

٢٥ ـ الجريمة

فحص أوفيد طريقَ منزلِ المحافظِ فحصاً دقيقاً، وأخبرَ أماندا ـ التي كانت تعرفُه باسم البارون أرنولد ـ بأنّه لن يتغدى معها في اليومِ التالي.

وانطلق أوفيد إلى معملِ جاك وأخبرَه أن المُهمَةَ ستُقضى في اليوم التالي، لأنّ لوسي ستذهبُ وحدَها إلى امرأةِ المحافظِ، من غيرِ أن

تصحَبَها أماندا. وطلب أوفيد من جاك أن يُعطيه مفتاحاً خاصاً يدخل به إلى المعملِ في الليلِ بعد تنفيذِ الجريمةِ، شرطَ أن تكونَ مركبةٌ واقفةً أمامَ بابِ المعملِ، حتى يتوهّمَ الناسُ أن أوفيد قضى ليلتَه في المعملِ مع جاك. واتّفقا على أن يجيء أوفيد إلى المعملِ في الساعةِ السادسةِ مساء ثم يخرجَ منه من البابِ السّريّ ويعودَ، فيكونَ جاك في انتظارِه، فيخرجا إلى المركبةِ، دون أن تحومَ حولَهما أيّةُ شُبْهة.

وأخبر جاك ابنتَه أنّه سيبقى في المعملِ في تلكَ الليلةِ لانشغاله ببعضِ الأمورِ الإداريّة. وفي الساعةِ السادسةِ حضرَ أوفيد بعد أن تأكّد أن لوسي ستذهبُ وحدها. ثم أخرج خنجراً كبيراً من ثيابه، وقال لجاك إن هذه الآلةَ ستكون وسيلةَ الجريمة، وقال له إنّه اشتراها من دُكّانٍ قريب من بيتِ لوسي.

أما لوسي، فكانت قد ذهبتْ في الصباحِ إلى منزلِ المحافظِ، ووعدتْ امرأتَه بالرجوعِ إليها في المساء لتجربةِ الثوبِ مَرّةً ثانيةً. وعند رجوعها من زيارتها الصباحيّة، شاءت الصُدفة أن تلتقيَ بأمّها، حنّة فورتيه، أي الأرملةِ ليزا بائعةِ الخبز، فسألتها لوسي عما تفعلُ فقالتْ حنّة: «لقد اشتدَّ المرضُ على صاحبةِ المخبز، وأنا الآن في طريقي إلى منزلِ أمّها لأخبرَها بمرضِ ابنتها».

وبعد أن افترقا انطلقت حنّة إلى منزلِ أمّ صاحبةِ المخبزِ، فأخبرتْها بالأمر، لكن الأمَّ رفضتِ الذهابَ إلى منزلِ ابنتها، لأنّها - أي الأمّ - كانت تخاصِم زوجَ ابنتها. وقالت لحنّة: «لن أذهب إلى منزلِ ابنتي إلّا

إذا بعث لي زوجُها برسالةِ اعتذار».

واضطرّت حنّة للذهابِ إلى المخبزِ لتطلُبَ من زوجِ سيّدتها أن يُرسلَ كتابَ الاعتذار إلى أمّ امرأته. وبعد أن تردّد الزوجُ في ذلك، كتبَ الاعتذار، وأعطاه لحنّة التي انطلقتْ إلى منزلِ الأمّ وسلّمَتْها الكتاب. فلما قرأت الأمّ الكتابَ قالت لحنّة: «أرجو أن تنتظريني قليلاً. سألبَس ثيابي وأذهبُ معكِ».

كان ذلك في العاشرةِ والنصفِ ليلاً. وهو الوقتُ نفسُه الذي خرجت فيه لوسي من بيتِ المحافظِ بعد زيارتها له في المساء. وكان أوفيد مختبئاً بين الأشجار، فلمّا رآها انقضّ عليها بالخنجرِ وطعَنها به، فسقطتْ أرضاً. ثم طعنَها مَرّةً ثانيةً، فأصابَ الخنجرُ جسماً معدنياً، فانكسر. لكن القاتل ظنَّ أن الطعنة الأولى كانت كافيةً لقتلِ الفتاة. وبعد ذلك رأى ساعتَها وسلسلتَها الذهبيّة فسرقهما ليوهمَ الشّرطةَ أن القاتلَ كان يقصِدُ السّرِقة.

وصادف في تلكَ اللحظة مرورُ حنة، وأمّ صاحبةِ المخبزِ، وخادمتها. فلما لمحهم أوفيد انطلقَ هارباً. لكن النسوةَ لمحنَه يهرُب، وكنّ قد سمعنَ صَرخةَ الفتاةِ بعد أن طُعِنَت.

وتعرّفت حنّة إلى وجهِ لوسي، فصرختْ صَرْخَةً شديدةً، ثم قالت لأمّ صاحبةِ المخبز: «إن جريمةً نكراء قد حَصَلت هنا. لكن الفتاةَ، والحمدُ لله، لم تَمُتْ. اذهبا أنتُما إلى منزِل سيّدتي المريضةِ، وتفضّلا بإرسال الجنودِ إلى هذا المكانِ على وجهِ السّرعةِ، فسأبقى

هنا مع الفتاةِ في الانتظار».

وبعد قليل حضرَ الضابطُ، ونقلَ الفتاةَ إلى منزله، وبدأ باستجوابِ حنّة، فأخبرتْه بما رأت. وظنّ الضابطُ أن الجريمةَ حَصَلَتْ بُغيةَ السّرقة، واحتفظ بالجُزء المكسور من الخنجرِ، وكتبَ تقريراً مفصّلاً عن الحادث. أما حنّة فبقيت إلى جانبِ لوسي في بيتِ الضابط، وكان الطبيبُ قد حَضَر واهتمّ بإسعافِ الفتاة.

وفي اليومِ التالي بدأ التحقيقُ في مكانِ الجريمة. وأما لوسي فقد ظهرتْ عليها أمارات التحسّنِ، واستعادتْ ذكرى الليلةِ السابقةِ، وتعرّفتْ إلى الأرملة ليزا التي لازمتْها.

وقال الطبيبُ للوسي إن الخطرَ زال عنها، وإنّها مدينةٌ لشجاعةِ الأرملةِ ليزا بحياتها. أما الضابطُ فقد دوّن اسم المخزَنِ الذي اشترى منه لوسيان لابرو الساعةَ لخطيبته، حتى يعرفَ رقمَها، فتَسهُلَ معرفةُ سارِقها.

واستأذنتِ الأرملةُ ليزا لوسي بالذهاب بعض الوقت إلى منزلِ صاحبةِ المخبزِ، لتطمئنّ إلى صحّتها. ولما وصلت ليزا إلى المنزلِ، أخبرَها زوجُ سيّدتها أنّها ماتت، وطلبَ منها أن ترجعَ إلى الفتاةِ المطعونةِ، لأنّ المخبزَ مُقْفَلٌ في ذلكَ اليوم.

٢٦ـ لوسي تتغلّب على مرضها

قلقتِ السيّدةُ أوغستين من غيابِ لوسي، فأرسلت أماندا لتستعلمَ عنها. وبينما كانت أماندا في طريقها إلى منزل لوسي، شاهدَها أوفيد، وسألها إلى أينَ هي ذاهبةٌ، فقالت: «بَعَثَتْني السيّدة أوغستين للاستعلامِ عن لوسي».

ـ «وما أصابَها»؟

ـ «خرجتْ إلى منزلِ المحافظِ ليلاً، ولم تَعُدْ».

فرافقها أوفيد، وهو يتظاهرُ بالذّهول. وسألت أماندا صاحبةَ المنزلِ الذي تسكُنُ فيه لوسي إن كانتْ قد رأت لوسي ذلكَ اليومَ، فنفتْ ذلك، وقالت إنّها لا تعرفُ عن أمرِ غيابها شيئاً.

أما لوسي، التي كانت صحّتُها في تحسّنٍ مستمر، فقد طلبت من حنّة أن تذهبَ إلى غرفتها في باريس، وتُخبرَ الحارسةَ بأمرِ الحادث. لكنّ الضابطَ نصحها بعَدَمِ إذاعةِ الخَبَرِ كي لا تنشُرَه الصُحُف.

وعملتْ ليزا بنصيحةِ الضابطِ، فأخبرتْ حارسَة منزلِ لوسي أن لوسي عثرتْ بحجرٍ، فجُرحت رجلها، واضطُرّتْ للبقاء في غابةِ كولومب. ثم سلّمتْها الحارسةُ رسالتينِ من لوسيان إلى خطيبته، فحملتْهما ليزا إلى لوسي.

وفي المساء، رجعت ليزا إلى منزلِ الضابطِ الذي بقيتْ عنده

لوسي، وسلّمتْها رسالتي لوسيان، فقرأتْهما لوسي بلهفة ظاهرة. ثم كتبت كتاباً إلى لوسيان أخبرتْه فيه أنها جريحةٌ، وأنّها ليستْ بحالةِ الخَطَرِ، ووصفتْ له عظيمَ شَوْقها إليه.

أما جاك جيرود، فكان في تلكَ الأثناء مطمئنًا إلى مقتلِ لوسي. وأمّا أوفيد سوليفو فكان قد بعثَ رسالةً إلى أماندا يدّعي فيها أنه مضطرّ إلى السّفَرِ، وقد وضع في الرسالة مبلغَ ألفِ فرنكٍ لأماندا. لكن أماندا أدركتْ أن هذه الرسالةَ حيلةٌ يتخلّصُ بها أوفيد ـ أي البارون أرنولد ـ منها. فأرادت أن تعرفَ حقيقةَ هذا الشخصِ الغامض. لكنّ أوفيد لم يكن قد تركَ لها سبيلاً لذلك.

لكن اطمئنانَ بول وأوفيد إلى نجاحِ الجريمةِ لم يَدُم. فقد استعادتْ لوسي نشاطَها شيئاً فشيئاً حتى صار في إمكانها أن تُتابعَ عملَها، شرطَ ألا تُجهد نفسها. وكان أوّلَ ما فعلتْه بعد العودة إلى باريس، أن زارتِ الآنسةَ ماري هرمان، لتعرِضَ عليها ثيابَها الجديدة.

ولمّا أبلغَ الخادمُ الآنسةَ ماري أن الخيّاطةَ لوسي قد أتتْ، اصفرّ وجهُ جاك، وتولّاه الرّعبُ، وعادتِ الأفكارُ القاتمةُ تسيطرُ عليه. وقد رفضتْ ماري أن تستقبلَ لوسي، لكن والدَها قال لها: «إن هذه الفتاةَ لم تقصِد الإساءة إليكِ بحُبّها للوسيان. فعليكِ أن تستقبليها، وبعد ذلك ستطلُبينَ من السيّدةِ أوغستين أن تُرسل لكِ فتاةً أخرى».

فاقتنعتْ ماري برأيِ والدِها، وأمرتِ الخادمَ أن يُدخلَ لوسي. ولما رأتْها ماري دُهشَت لهزالها، وسألتْها بتكبّرٍ: «ماذا تريدينَ منّي».

ـ «لقد جئتُ لتقيسي بعضَ الأثواب. وأعتذِرُ عن تأخّري، فقد تعرّضتُ لحادثٍ منعني عن العمل».

ـ «وما هو هذا الحادث»؟

ـ «لقد طعنني شخصٌ ما، وسرق ساعتي وسلسلتي».

ـ «وهل قبضوا على الفاعل»؟

ـ «لا، للأسف. كما أنني لم أتمكّنْ من رُؤية وجهه، لشدّة الظّلام».

واطمأنّ جاك بعد أن سَمعَ هذه الأقوالَ، إذ إن الفتاةَ لو عَرَفت منِ اعتدى عليها، لانفضح أمرُه هو.

وراح جاك يتأمّلُ وجهَ لوسي، ويقولُ في نفسه إن وجهَها ليس بغريبٍ عنه. ثم برقتْ عيناه فجأةً وصار يتمتم:

«إنّها تُشبه حنّة فورتيه». وفجأةً قَرَنَ بين اسم الفتاةِ، واسم ابنةِ حنّة فورتيه التي كانتْ في الملجأ: لوسي، ثم تذكّرَ أن هذه الفتاةَ لقيطةٌ، فقويَ اعتقادُه أنّها هي ابنةُ حنّة. وصمّمَ على التأكّدِ من هذا الاعتقاد.

أما ماري فقد قالتْ للوسي إنّها لا تحتاجُها، فأدركتْ لوسي أن ماري لم تَعُدْ تريدُها أن تجيء إلى منزلها، فانصرفتْ على الفور.

٢٧ - أوفيد يكلَّف بمهمّة أخرى

في اليومِ التالي ذهب جاك إلى منزلِ أوفيد، وأطلعَهُ على أمرِ لوسي، فاستغربَ الأمرَ، وأيقنَ أن ضربتَه الأولى لم تكنْ قاضية.

وقال جاك: «لا بأسَ فيما حَصَل. لكن هناكَ مُهمّةٌ أخرى سأكلّفُك بها».

ـ «أنا في خدمتك دائماً، كما وعدت».

ـ «إنني أدفعُ نصف ثَروتي لأعلمَ إن كانت لوسي الخيّاطة هي نفسُها لوسي ابنةَ حنّة فورتيه التي وُضِعَتْ في الملجأ بين عام ١٨٦١ و ١٨٦٢، والتي كانت تُسمّى: الرقم ٩».

ـ «وكيف خَطَرَ لك هذا الخاطرُ المستحيل»؟

ـ «بل إنه معقولٌ جدًّا... لقد لاحظتُ اسمَها، وعمرَها، وشَبَهَها بحنّة فورتيه».

ـ «ولو افترضنا أن اعتقادك صحيح، فما الفائدةُ منه»؟

ـ «حين أثبتُ للوسيان أن لوسي هي ابنةُ قاتلةِ والدِه، سينفرُ منها، ويتزوّجُ ابنتي».

ـ «إنّك مُصيب، وسأبدأ عَملي غداً».

ـ «إذاً عليكَ أن تذهبَ إلى قريةِ جواني، فتسألَ عن تلكَ الصغيرة.. هل تحتاجُ إلى نقود»؟

ـ «أولَم تعلمْ أن أماندا استنفدت جميع أموالي»؟

فأعطاه جاك مبلغاً كبيراً، ودعا له بالتوفيق.

أمّا ماري، فبعدَ أن ذهبت لوسي من عندِها، وبعد أنِ خرج أبوها للمعملِ، شعرتْ بالمللِ، وخطرَ لها أن تزورَ إتيان المصوّرَ، الوصيّ على جورج. فلمّا وصلتْ بادرَها إتيان بالقول: «لا شك أنّكِ آتيةٌ لتعاتبيني على عدمِ إنهاء رسومك»؟

ـ «لا.. ولكنّي أطلبُ منك أمراً آخرَ. فإن عيدَ ميلادِ والدي بعد شهرين، وأودّ أن أقدّمَ له هديّة».

ـ «فهمتُ.. تريدين إهداءه صورتك».

ـ «تماماً، وأرجو أن تكونَ جاهزةً في الوقتِ المناسب».

ـ «أرجو ذلك. وهل تريدينَ حجمَها كبيراً كهذا الرسم»؟

ثم أشارَ إلى رسمٍ كبيرٍ في الزاويةِ، وهو رسم حنة فورتيه ساعةَ ألقى الجنودُ القبضَ عليها. فقالت ماري: «يا للشَّبَه العظيم! إنني أعرفُ فتاةً شابّةً تُدعى لوسي، تُشبه هذه المرأة التي يُحيط بها الجنود».

ـ «وأين تُقيم هذه الشابّة»؟

ـ «في شارعِ بوربون، الرقم ٩».

فقال إتيان في نفسه: إن الفتاة التي سيخطبُها لوسيان لابرو تُدعى

لوسي أيضاً، وتسكنُ في شارعِ بوربون، الرقم ٩. ولوسي هذه شديدةُ الشبه بحنّة فورتيه، وعمرُها الآن اثنتان وعشرون سنة.

ثم اتّفق مع ماري على حجم اللوحةِ، ودعاها لتناول شرابٍ باردٍ، وأخذا يتجاذبانِ أطراف الحديث. وحدّثَتْه ماري عن والدِها، وسفره إلى أميركا شابًا، وقصّته مع جيمس مورتيمر وابنته. ثم سألها إتيان: «هل قَبل والدُك باقتراحك القديمِ بشأنِ لوسيان لابرو»؟

فاحمرّ وجهُ الفتاةِ خَفَراً، وقالت: «قد اقترح والدي هذا الأمر عليه، وأرجو أن يتّفقا بصددِهِ».

وأدرك إتيان ما يجولُ في خاطرِ ماري عن لوسيان.

٢٨ـ التحقيق في أمر لوسي

في اليوم التالي انطلق أوفيد إلى قريةِ جواني فأقام في فندقٍ فيها. ثم اهتدى إلى مُرضعٍ طاعنةٍ في السّنّ، فسألَها عن ابنة حنّة فورتيه التي حُكم عليها بالسّجن المؤبّد. وقالت له هذه المُرْضِعُ إنّ ابنة حنّة ربما كانت تُرضَعُ عند المُرْضع فريمي، وإنه لا بدّ أن تكون المُرْضِع قد سلّمتْها لشيخِ البلدِ الذي يحتفظُ بسجلاتٍ فيها معلوماتٌ وافيةٌ عن كل فتاةٍ تُرسَلُ إلى الملجأ.

فشكرها أوفيد وانصرف. لكنّه خاف أن يذهب إلى شيخِ البلدِ، فيسأله عن علاقته بحنّة فورتيه، أو يشتبه به. ولذلك دخل إلى مكتبِ



وفي اليوم التالي انطلق أوفيد إلى قرية جواني

في طريقه، وسأل واحداً من المستخدمين: «هل تعرفُ مَن كان شيخُ البَلَدِ عام ١٨٦١»؟

ـ «هو دوشمان، الذي عَمِيَ واعتزل، وهو يقيمُ في ديجون».

ـ «وهل تسمح لي بأن أسألك. . .»

وهنا دخل شخص إلى المكتب وأخذ يعنّفُ المستخدم، ويتّهمُه بالكَذِبِ والاحتيالِ، فقال له المستخدَمُ: «أرجوك أن تُمهلَني أسبوعاً واحداً ليس غير».

فقال الرجل له: «لن أمهلَك إلا يوماً واحداً. فإن لم تدفعْ الألف فرنكِ التي استدنتَها مني بسندينِ مزوَّرينِ أبلغتُ الشّرطة عنك».

ثم انصرف الرجلُ، واستسلم المستخدم الفتى لبُكاء مرير، وقال: «إنني أستحقّ هذا العذاب يا سيّدي. إن هذا الرجلَ الذي انصرفَ هو شريكُ عَمّي في تجارةِ الخمر. وقد زوّرتُ سندين باسم عمّي وقبضتُ قيمتَهما من هذا الرجل. فلما حان وقتُ دفعهما، خفتُ أن يَفضحَ عَمّي أمري، فذهبتُ إلى هذا الرجلِ واعترفتُ بتزويري السّنديْن، فأمهلني وأمهلني، ثمّ لم يعدْ يستطيع معي صبراً. . كل ذلك من أجل امرأةٍ، لمّا عَلمَتْ بإفلاسي هَجَرتْني بعد أن زوَّرْتُ السنديْن من أجلها».

فقال أوفيد متكلّفاً الاهتمام: «ماذا قرّرتَ أن تفعلَ»؟

ـ «إما أن أنتحرَ أو أن أنتظرَ مجيء الشّرطة. فإن عمّي لن يصفحَ عنّي بحال».

فما كان من أوفيد إلا أن قال للرجل: «سأذهبُ وإيّاكَ إلى شريكِ عمّك، وأدفعُ عنكَ قيمةَ السّندين».

فلم يصدّق الرجلُ أوّلَ الأمرِ، لكنّ أوفيد أكّد له أنه مُصَمّمٌ على ذلك. ثم ذهبا إلى الدائنِ ودفعَ له أوفيد قيمةَ السّنديْنِ، فأعطاهُ الدائنُ إياهُما، فاحتفظَ بهما أوفيد في جيبه.

وبعد أن تركا منزلَ الدائنِ قال الرجلُ لأوفيد: «لقد أنقذتَ حياتي وشرفي، فكيف أكافئُك على صنيعك»؟

ـ «سأقولُ لكَ كيفَ تكافئُني».

وسارا إلى الفندقِ، فعلم أوفيد من حديثِ الرجلِ أنه لا يزالُ مديناً بألفي فرنك، فوعدَه أوفيد بتسديدِ الدينِ، إن هو قامَ بخدمته. قال الرجل: «مُرني يا سيّدي، فلن أخالفَ مشيئتَك»!

ـ «إذن سأخبرُك: منذ اثنتين وعشرينَ سنةً أحببتُ امرأة متزوّجة، ووضعتْ مني طفلةً، وكان زوجُها مسافراً. فخافت المرأةُ أن يَفضحَ زوجُها أمرَها. فأودعتِ الطفلةَ عند مُرضِعٍ في جواني اسمها فريمي. وقد علمتُ أن الطّفلة أُرسلتْ إلى الملجأ بعد ذلك. وأنا أريدُ منكَ أن تذهبَ إلى شيخ البلد، وتأتيَني بنسخةٍ عن سجلّ هذهِ الصّغيرةِ عنده، ففي السّجلّ حتماً معلوماتٌ كثيرةٌ عنها».

ـ «إنّك تطلبُ أمراً بالغَ الخُطورة يا سيّدي، لكنني لن أتوانى عن خدمتك. ففي أيّةِ سَنةٍ أرسلتِ الفتاةُ إلى الملجأ»؟

ـ «في عام ١٨٦٠ أو ١٨٦١».

ـ «وما اسمُ أمّها»؟

ـ «حنّة فورتيه».

فارتعش الرجل وقال: «لكنّ هذه المرأة مُجرِمَةٌ خطيرَة»!

ـ «بل هي بريئة. وأنا متأكّدٌ من أنك تصدّقُني حين أقولُ إنها بريئة، ومن أنّك ستساعدُني في العثورِ على ابنتي».

ـ «سأنفّذُ رَغبتَك حالاً».

ـ «إذاً سأنتظرُك فآخذُ النسخةَ منك.. وأرجو أن لا تعودَ إلى تعلّقك بالنّساء».

ـ «قاتل الله النساء.. لقد كانت تلكَ الفتاةُ التي سبّبت لي كلّ هذا آيةً في الجمالِ، وكان اسمها أماندا».

ـ «أماندا»؟

ـ «نعم! هل تعرفُها»؟

ـ «أعرفُ فتاةً تُدعى بهذا الاسمِ، لكنّها ليست في جواني».

ـ «وفتاتي أيضاً تركت جواني إلى باريسَ. وذلك أنّها بعد أن سرقتِ المحلّ الذي تعملُ فيه، أرادتْ صاحبتُه أن تشكوَها إلى الشّرطة. لكن أماندا توسّلتْ إليها ألا تفعلَ ذلكَ، ووعدتْها بردّ قيمةِ المسروقِ بعد عام. ولهذا اضطُررتُ إلى التزويرِ لأعطيَها القيمةَ التي كانت تحتاجُ إليها».

ـ «وأينَ هو المحلّ الذي سرقتْه أماندا»؟

ـ «في الشارعِ الكبيرِ، الرقم ٧٤».

ثم افترقا على أن يجتمعا في اليوم التالي.

وكان الفتى هذا مستخدَماً عند شيخِ البلدِ، ففتحَ السجلّ وانتزعَ منه الوَرَقَةَ التي تتعلقُ بلوسي، دون أن يأخُذَ نُسخَةً عن هذا الأصل. ثم وَضعَ الورقةَ في جيبه، وانصرفَ إلى عمله.

٢٩ـ استكمال التحقيق

ذهب أوفيد سوليفو إلى المحلّ الذي سرقتْه أماندا. وقابلَ صاحبةَ المحلّ وقال لها إنه يريدُ أن يدفعَ قيمةَ المسروقِ منها، على أن تُعطيه صاحبةُ المحلّ التعهّدَ الخطّيّ الذي كتَبَتْه أماندا معترِفَةً فيه بالسرقةِ، وواعدةً بإرجاعِ قيمةِ المسروقِ بعد عامٍ واحد. فقبلتْ صاحبةُ المحلّ بهذا، وأعطَتْ أوفيد ورقةَ التعهّدِ فاحتفظَ بها.

وفي المساء سلّم المستخدَمُ، وكان اسمُه دوشمان، الورقةَ التي سرقَها من شيخِ البلدِ إلى أوفيد. وكان في الورقة تصريحٌ من المُرْضِعِ فريمي بأنّها سلّمت لوسي، ابنة حنّة فورتيه، إلى شيخِ البلدِ في شهرِ نيسانَ عام ١٨٦٢، ليضَعَها في الملجأ.

سُرّ أوفيد بهذه الوثيقة. ثم قال له الفتى: «هل تسمحُ يا سيّدي بأن تعطيَني السّنديْنِ اللذيْن دفعتَ قيمتَهما»؟

ـ «لا تخفْ يا بُنيّ، فقد حرقتُهما».

وبعد ساعتينِ رجع أوفيد إلى باريسَ، وهو مطمئنٌ إلى نجاحِ مهمّته، وإلى حصوله على وثيقةٍ موقّعةٍ من أماندا، تعترفُ فيها بالسّرِقَةِ، وهو يرى أنه قد يحتاجُ إليها في التأثيرِ على أماندا.

ولنترك أوفيد، ولنَعُدْ إلى تحقيقِ الضابطِ بمحاولة القتلِ التي تعرّضَتْ لها لوسي. فقد وجد الجنودُ قَبضةَ الخنجرِ الذي استعملَه الجاني، وقد كُتبَ على القبضةِ: «روشار، بائعُ أسلحةٍ، شارعُ بوربون، الرقم ٩».

ولاحظ الضابط أن هذا العنوانَ هو عنوان منزل لوسي أيضاً، فأدرَكَ أن الجريمةَ حصلتْ عن إصرارٍ سابق. وتوجّه إلى محلّ الأسلحةِ المذكورِ، فراجعتْ صاحبتُه دفاترها، وقالت إنها باعتْ الخنجرَ في اليومِ السابقِ للجريمة. وقالت إن الذي اشتراه رجلٌ في الخمسينَ من العُمرِ، كثير التأنّقِ والرّشاقة.

ثمّ صعد الضابطُ، مع قاضي التحقيقِ، إلى منزلِ لوسي، وأخبراها باعتقادِهما أن الجريمةَ كانت متعمّدة. لكنّ لوسي استبعدتْ ذلك، وقالت إنها يتيمةٌ، ولا تَظُنّ أن أحداً يُضمر لها الشرّ.

وبعد ذلك، ذهبت لوسي إلى معملِ السيّدة أوغستين، وأطلعتْها، مع أماندا، على آخرِ تطوّراتِ التحقيق.

٣٠ ـ البارون أرنولد

بعد عودةِ أوفيد ـ أو البارون أرنولد عندَ أماندا ـ التقى بأماندا التي عاتَبَتْه على انقطاعِ أخباره.

ثم سألها عن لوسي الخيّاطة، فقالت: «إن الضابطَ وقاضيَ التحقيقِ يعتقدانِ أن في الأمرِ جريمةً مدروسة. وذلك أنّهما اكتشفا أن الجانيَ، وهو رجلٌ في الخمسينَ من عمرِه، قد اشترى الخنجرَ من مخزنٍ للأسلحةِ قريبٍ من منزلِ لوسي».

وهنا ظهر الاضطرابُ على أوفيد، فقالت أماندا له: «ماذا أصابك، أتشعرُ بشيء»؟

فتمالكَ أوفيد أعصابَه، وقال: «لا.. أبداً..»

فقالت أماندا: «لا بدَّ أن تكونَ أنتَ قد لمحتَ هذا الرجلَ حين دخلَ إلى مخزنِ الأسلحةِ لشراء الخنجرِ، لأن ذلكَ تمّ في الوقتِ الذي كنت أنا عندَ لوسي، وكنتَ أنت في انتظاري في المركَبَة».

ـ «لم أكن أراقبُ المخزنَ في ذلك الوقت».

ثم حاول أن يغيّر موضوعَ الحديث، فقال: «لقد جمعتُ خطوطاً كثيرةً في رِحلتي الأخيرةِ، فإن هذه هوايتي المفضّلة».

ـ «وهل تَجْمَعُ خطوطَ المشاهير»؟

ـ «بل إنني أجمعُ خطوطَ المغمورينَ، لأدْرُسَها، وأحلّلَ

مميّزاتها». ثم نظرَ إليها بخُبثٍ وقال: «عندي ورقة باسم بول دوشمان مَثلاً، وهو رجلٌ ليس مشهوراً».

فقالت متلعثمة: «ومن هو هذا الرجل»؟

ـ «إنه فتىً ساعَدْتُهُ على التخلّصِ من السّجن، وهو يقيمُ في جواني، فهل تعرفينَ تلك القرية»؟

ـ «كلا»!

ـ «أمتأكّدةٌ أنتِ مما تقولين»؟

فقالت محاولةً إخفاء ارتعاشها: «طبعاً».

ـ «أما أنا فلستُ متأكّداً من كلامك، لأن بين يديّ خطًّا آخر أخذتُه من عندِ خيّاطةٍ تُدعى السيّدة دليوز، وهو بمثابةِ اعترافٍ من أماندا رجامي، أي أنتِ، بالسّرقة».

فلم تجد أماندا مَهْرَباً من الاعتراف، وقالت: «تلكَ كانت من هَفَواتِ الطّيْش... ولكن ماذا فعلتَ بتلكَ الورقة»؟

ـ «لا تخافي يا عزيزتي، فأنا محتفظٌ بها».

ـ «ألن تُرجعَها لي»؟

ـ «أنتِ تعلمينَ أنني مُولَعٌ بالخطُوطِ، ولذلك سأحتفظُ بها. ولكنْ لا تخافي فأنا أحبّكِ ولن أؤذيَكِ أبداً».

وبعد أنِ افترقا قالت أماندا في نفسها: إن هذا الرجل غامضٌ، فهو

لا يرضى أن يخبرَني عن مكانِ إقامته. وأنا أشُكّ أنّه هو نفسُه الذي اشترى الخنجر من مخزنِ الأسلحةِ، بينما كنتُ أنا عند لوسي. ثم إن الأوصاف التي ذكَرَها الضابِطُ للوسي تنطبقُ عليه.

أما أوفيد فكان يفكّر بأماندا ويقول لنفسه: لا شكّ أنها بدأتْ ترتابُ بأمري، وأظنُّ أنّها ستنتقمُ مني. ولكن لا بأس.. فهي تخافُ على سُمعتها إن أنا شهرتُ الورقة التي وقّعَتْها.

٣١ ـ عودة لوسيان

كان جاك ينتظرُ نتيجةَ استطلاعِ أوفيد لشأنِ لوسي. فلمّا أخبرَه أوفيد بتلكَ النتيجةِ، وأعطاهُ السجلّ، وأخبرَه أنه سأل مديرَ الملجأ عن مصيرِ لوسي، ولم يعد يَشُكّ في أنّها هي نفسُها لوسي الخيّاطة، أخذ جاك يقولُ في نفسه: فلنرَ الآنَ إن كان لوسيان لابرو سيظلّ عازماً على الزواج بابنةِ قاتلِ أبيه.

أما ماري، فكانت علّتُها قد استفحلتْ، وكانتْ حزينة لفراقِ لوسيان. ولكنّها كانتْ تُعزّي نفسَها بعودته المرتقَبَةِ بعدَ يومين.

وعندما رجع لوسيان، اخبرتْه خطيبتُه بتفاصيلِ الحادثةِ التي تعرّضت لها، فاطمأنّ إلى سلامتها بعد أن كان كتابُها إليه قد جعلَه يقلقُ على سلامتها. ثم قاما، ومعهما الأرملةُ ليزا بالطّبع، فتناولا طعامَ العشاء، وسهروا معاً.

وفي اليوم التالي ذهب لوسيان إلى المعملِ، وقابلَ السيّد هرمان، وبحثا أموراً تتعلّقُ بالعمل. وعجبَ لوسيان من أن السيّدَ هرمان لم يذكرْ له ابنتَه، فقال: «كيفَ حالُ الآنسةِ ماري ياسيّدي»؟

ــ «إنّها مريضةٌ. وانا واثقٌ من أنّها بحاجةٍ إلى السعادةِ التي تُنسيها مَرَضَها».

ودعاه بول إلى منزِله للعشاء، فحاول لوسيان التنصّلَ، لكنّه عادَ فقبل الدعوةَ، وقالَ في نفسه: لو تهرّبتُ من ماري لكنتُ السببَ في شقائها وموتها.

وعند الساعةِ السابعةِ ذهبَ لوسيان إلى منزلِ بول فاستقبلتْه ماري، وهي ظاهرةُ الضَّعف. لكنّها قالت لأبيها أمامَ لوسيان: «إن لوسيان يعرِفُ أن حُبّي له يجعلُني أتغلّب على مرضي».

فقال لوسيان: «وأنا سعيدٌ برؤيتكِ يا سيّدتي».

ــ «أرجو أن يكونَ الأمرُ كذلك.. وأنا أطلبُ منكَ، وأبي سيوافقُ بالتأكيد، أن تتفضّلَ كُلَّ ليلةٍ إلى منزِلنا لتناوُلِ العشاء».

فاضطربَ لوسيان وفكّر أن يرفُضَ هذه الدعوةَ، لكنه كان حريصاً على صِحّةِ هذه المسكينةِ، فوافقَ على اقتراحها، قائلاً: «إن في عَرضِك شرفاً كبيراً لي.. ولكن أرجو أن تسمحي لي بعدمِ الانقطاعِ عن أصدقائي، فلهم أيضاً حقّ عليّ».

فقال بول مخاطباً ابنتَه: «إن لوسيان يقولُ الحقَّ يا ابنتي، ونحن لا

حقَ لنا بالاستيلاء على وقته كلّه».

فضحك الجميعُ. وفي الساعةِ العاشرةِ خرج لوسيان شاكراً، وهو يشعر أنّه كان يجبُ أن يصارِحَ ماري بحبّه للوسي.

وبعد أن ذهبَ، بقي بول جالساً مع ابنته، وقال لها: «هل وثقتِ الآنَ من حُبّه لك»؟

ــ «أنت مخطىء يا أبي. إنَّه يَدَّعي أنه يُريدُ زيارةَ أصحابه، في حين أنّه يزورُ حبيبَتَه لوسي.. إنني أحسدها، ولَرُبّما قتلني هذا الحسدُ، أو دَفَعَني إلى قتلها».

ــ «اطمئنّي يا ابنتي. إنَّه لكِ، ولن يكونَ لغيرِك ما دُمْتُ أنا حيًّا».

ولمّا دخل بول إلى غرفته فكّر في الأمرِ مليًّا فقررَ أن يُقابل لوسيان في اليوم التالي.

ولما قابل بولُ لوسيانَ قال له: «لم يعد من دواء لابنتي إلا الزواجُ، فهل تَقْبَلُهُ»؟

ــ «ولكنْ يا سيّدي..»

ــ «إسمع يا لوسيان: إن ابنتي في خَطَرٍ، وأنا لا أفكرُ إلا من هذهِ الزاوية.. ثم إن الفتاةَ التي تُحبّها غيرُ جديرةٍ بحبّك..»

ــ «إيّاك أن تقول هذا.. هل أعمتكَ عاطفتُك الأبوية»؟

ــ «لا يا بُنَيّ. إنني أحاولُ أن أمنعكَ من الزواجِ بالفتاةِ التي هي ابنةٌ

حنّة فورتيه قاتلةِ أبيك».

فصرخ لوسيان: «كفى كذباً»!

لكنَّ بول أطلعَه على الورقةِ التي حَصَلَ عليها من أوفيد. وما إن قرأها لوسيان حتى سقطَ مغميًّا عليه.

٣٢ ـ القلوب لا تباع

وبينما كان بول يخبر لوسيان بحقيقةِ لوسي، كانت ماري في طريقها إلى منزل لوسي.

ولما وصلتْ، قالت للوسي بلهجةٍ متكبّرة: «لقد قلتِ لي إنّك يتيمةٌ وفقيرةٌ، ولا موردَ لكِ إلا عملك في الخياطة».

ـ «صحيح! ولكنني سعيدةٌ والحمدُ لله».

ـ «لا تبالغي.. لقد جئتُ أنا لأعطيَكِ السعادة. إنني أريدُ أن أعقدَ معكِ اتّفاقاً.. سأمنحُك ثلاثمائةَ ألفِ فرنك شرطَ أن تغادري فرنسا».

ـ «ولكن لِمَ أغادرُها»؟

ـ «لأنني أريدُ الهناء لنفسي بعد أن سلبته منّي. وإن كان المبلغُ قليلاً ضاعَفْتُه لك.. كلّ ذلكِ لتتخلّيْ عن لوسيان الذي أحبّه أنا، ولا أرضى أن يتزوّجَ غيري».

ـ «وهل تظنّينَ أنني سأوافقُ على عَرضِك»؟

ـ «أنا واثقةٌ من موافقتك».

ـ «إذنِ اعلمي أن القلوبَ لا تُباع بأموالِ الأرضِ جميعاً..».

وهنا جثتْ ماري على ركبتيها، وأخذتْ تسترحمُ لوسي، فقالت لها لوسي: «إنني أذوبُ حزناً على حالتك، لكنَّ القلوبَ أثمنُ من أموالِ الدنيا».

فنهضتْ ماري، وقالت بصوتٍ مبحوحٍ: «سأنتقم..» ثم انصرفتْ كالمجنونةِ، تاركةً لوسي تقول: «اصفَحْ عنها يا ربّاه.. إنها مسكينةٌ ومريضة»!

ثم دخلت حنّة، فروتْ لها لوسي ما حصل.

ولنعدْ إلى لوسيان. فإنه حالما استعادَ وعيَه، ذهبَ إلى مكتبِ بول، وقال له: «لقد صدَّقتُ أن لوسي هي ابنةُ حنّة فورتيه.. لكنه لا يوجدُ برهانٌ واضِحٌ على أنّ حنّة كانتْ هي المجرمة الحقيقيّة».

ـ «ولكنّ الناسَ سينظُرون إلى لوسي على أنّها ابنة قاتلةِ أبيك».

ثم تنهّدَ لوسيان وقال: «رباه! ما هذه المصيبة»! فحاول بول أن يشجّعه على الزواجِ بابنتهِ فقال: «لا تقنَط من رحمةِ الله يا بُني.. أم تراكَ نسيتَ أن هناك فتاةً جميلةً وغنيّةً تحبّكَ حتى العبادة؟! إن ابنتي ستموتُ إن رفضتَها».

فسكتَ لوسيان قليلاً ثم قال: «أخبرِ ابنتَك عن سجلّ لوسي، حتى تعلمَ أني لن أتزوّجَها.. وفي هذه الأثناء سأفكّر بأمري وأقرّرُ ما أراه حكيماً».

وانصرف لوسيان إلى المخبزِ الذي تعملُ فيه حنّة فورتيه، وكانت الدموعُ تترقرقُ في عينيه. فلمّا رأته حنة ذُعِرَت وقالت: «إن دموعَك تَنمّ عن أمرٍ خطير». ثم جلسا، فأخبرته حنّة عن مجيء ماري إلى منزلِ لوسي، وعن عرضِها الذي اقترحته، فقال لوسيان: «إني أشفق على هذه المسكينة».

فقالت حنّة: «لو رأيتَ لوسي وهي تبكي بعد زيارةِ ماري، لكنتَ تقطّعتَ حُزناً».

ــ «إنني أشفقُ عليها أيضاً».

ــ «أهو مجرّدُ إشفاق. . . إنها خطيبتُك».

ــ «إن شرفي يمنعُني من الزواجِ بلوسي».

فاصفرّ وجه حنّة وسألته عن السبب، فأخبرها بأمرِ لوسي، وأطْلعها على وثيقةِ الملجأ التي كان قد استعارَها من بول هرمان.

ثم قال لوسيان: «أقسمُ باللّهِ أنني أتألّمُ لقراري عدمَ الزواجِ بها. وأنا أعتقدُ أنّ أمّها بريئة. لكنّ الناس لن يعتقدوا ما أعتقدُه».

فكادت حنّة تبوحُ بسرّها له، لكنها عادتْ فآثرتِ الصمت. ثم سألتْه: «وهل ستسكُت عن براءةِ حنّة»؟

ــ «بل إنني أبحثُ عن دليلِ براءتها، وهو رسالةٌ من جاك جيرود إليها، فيها ما يُثبت أنّه القاتل. وأنا واثقٌ من أن جاك ما زال حيًّا. . ولكن قبلَ إثباتِ براءةِ حنّة لن أستطيعَ الزواج بابنتها».

٣٣ ـ لوسيان يصارح ماري

ذهب لوسيان إلى منزلِ بول هرمان، بعد أن تركَ حنّة، ولم يكن بول في منزله، فاستقبلته ماري، ودخلا إلى غُرفةِ الاستقبال. وقال لوسيان بعد قليلٍ: «لا بدّ لنا من المصارحةِ يا آنستي. . فقد اجتمعتُ مع ابيك».

فقالت: «أعرف أنّك لا تحبّني. . أما أنا فقد أحببتك حبًّا جعلني أسيرتَه».

وهنا قال لوسيان بلهفة: «لقد كنتُ أحبّ سواكِ. . لكنني اليوم ملتزم بما يُمليه عليّ واجبي وشرفي».

ــ «أتعني أنكَ لم تَعُدْ تحبّ لوسي»!

ــ «أنا لم أقلْ هذا. . إن لوسي لملاك. . لكنّها ابنةُ قاتلةِ أبي: إنها ابنةُ حنّة فورتيه».

فنهضتْ ماري وقالتْ: «غيرُ معقولٍ. . إن هذا ادّعاء محضٌ تريدُ أن تعلّلَ نفسي به».

ــ «بل إن ما قلتُه الحقيقةُ». ثم أخرجَ الوثيقةَ من جيبه، وأعطاها لماري التي قرأتْها بلهفةٍ، ثم أخذتْ تُتمتمُ: «لقد انتقمَ الزمان لي أخيراً».

وبعد قليل قال لها لوسيان: «إن عليَّ الآنَ أن أشفى من الصدمةِ

التي تعرَّضْتُ لها. . ومتى برأتُ من الصدمةِ، أصبح قلبي حُرًّا من جديد. فاصبري معي».

ـ «سأحاولُ أن أصبر. . »

وهنا دخلَ جاك وسمعَ كلامَ ابنته فقال لها: «علامَ ستصبرين يا ماري»؟

فأخبراه بالحديثِ الذي دارَ بينهما، فاطمأنَّ إلى أمرِ ابنته. أما لوسيان فقال في نفسه: إنّها مسكينةٌ حقًّا. ولكنّني لا أستطيعُ أن أفعلَ لها أكثرَ مما فعلت.

٣٤ ـ إكسير الحقيقة

شعر أوفيد أن أماندا قدِ امتلكتْ سرَّه. وصار يخشاها، رغمَ الورَقَةِ التي ظنَّ أنّه سيقيّدُها بها.

واقترحَ عليها يوماً أن يذهبا في إجازةٍ لمدةِ أسبـوع، فوافقتْ بعد أن طلبَتْ إجازةً من السيّدةِ أوغستين. وذهب أوفيد إلى غاباتِ المَلكِ، على ضِفافِ السّين، فاستأجرَ غُرفةً في الفندقِ، على أن تلحقَ به أماندا بعدَ ساعة.

وكتبَ رسالةً إلى جاك أخبرَه فيها بعنوانه في الفندق، لعلّه يحتاج إليه.

ثم ذهب أوفيد في نُزهةٍ قصيرة، ريثما تجيء أماندا. ولمحَ جماعة

من النّاسِ جالسينَ على الأعشاب، فتقدَّم قليلاً، وسمع صوت رجلٍ مُسنٍّ بينهم، فقال في نفسه: أنا واثقٌ من أنّني سمعت هذا الصوتَ قبل اليوم.

لقد كان هذا الرجل المسنّ هو الرجلُ الذي حاولَ أوفيد سَرِقَةَ أمواله على الباخرةِ، فأرجعَها له جاك جيرود. وكان يتحدَّث مع الموجودينَ عن إكسيرِ الحقيقةِ الذي هداه إليه الرجلُ الكنديّ الذي كان مسافراً معه.

ولم يسمعْ أوفيد شيئاً من حديثِ الرجل، لكنّه ظلَّ يتساءل عنِ المكان الذي سمعَ فيه صوته. ثم رَجَعَ إلى الفندقِ فوجدَ أماندا بانتظارِه، فتناولا الطّعام معاً.

وفي اليوم التّالي تظاهرَ أوفيد بالتّعبِ، وطلب من أماندا أن تذهبَ للنّزهة بمفردِها فوافقتْ على ذلك، وما إن تركتِ الغرفة حتى قامَ أوفيد بوضعِ قليلٍ من «إكسيرِ الحقيقة» في زجاجةٍ من الشّراب الذي تُحبّه أماندا.

أما أماندا، فحين وصلتْ إلى مَحطّةِ القطارات، رأت النّاسَ متحلّقينَ حولَ شابٍّ مُغْمًى عليه. وعلمَتْ أن هذا الشابّ قد أُصيبَ بجروحٍ عندَ اصطدامٍ بسيطٍ بين قطارين. فلما رأت أماندا الشابَّ عَرَفته: لقد كان دوشمان، صديقَها القديم. لكنّها لم تَقُلْ شيئاً، بل عادتْ إلى الفندق.

وفي المساء قدّمَ أوفيد لأماندا الشرابَ الذي تُحبّه، فشربتْ منه

كثيراً، وأصيبتْ بعطشٍ شديد، واحمرّ وجهُها. وهنا علم أوفيد أن الإكسير قد أثّر في الفتاةِ، فسألَها: «هل تعرفينَ الرَّجُلَ الذي اشترى الخنجرَ من المخزنِ القريبِ من بيتِ لوسي»؟

فنظرتْ إليه أماندا نظرةَ ازدراء وقالت: «أتظنّ أني لا أعرِفُك، ولا أعرفُ أنّكَ مجرمٌ خطيرٌ، وأنّك حاولتَ قتلَ لوسي»؟

فخاف أوفيد من أن يَسْمَعَ أحد صراخها، فقام إليها يُسكتُها، فصرخت: «دَعْني أيّها السافلُ. أنا أعرِفُ أنك لستَ ببارون. كلّ همّي الآنَ هو أن أعرفَ حقيقة أمرك، فأنتقمَ منكَ، بفضحِ أمرِك للشّرطة».

ثم سقطتْ أماندا على الأرضِ مَغْشيًّا عليها. فخاف جاك من أن تموتَ، فطلبَ طبيباً لها. وصادف في الفندقِ وجودُ صديق للرجلِ الذي حاولَ أوفيد سَرِقَةَ أمواله قديماً، وكان طبيباً، فصعد إلى غُرفةِ أوفيد وأماندا.

ولمّا رأى الطبيبُ التشنّجاتِ العصبيّةَ التي أصيبتْ بها أماندا، طلبَ من الرجلِ أن يُسرعَ بإحضارِ النشادر (الأمونياك) لإسعافها. وبعد أن تمّ ذلك قالَ الطبيبُ لأوفيد: «لا شكّ أنّكَ قد زرتَ أميركا».

فقال أوفيد، وقد تذكّرَ من يكونُ الرجلُ الذي أمامَه: «لا يا سيّدي».

ـ «على أيّةِ حالٍ، لقد أردتَ أن تعرِفَ أسرارَ هذه المرأةَ، فسقيتَها

من «إكسيرِ الحقيقة». واعلَمْ أنّه لولا وجودي هنا، لكان قُضيَ عليها بالتأكيد».

ثم انصرفَ الطبيبُ بعد أن أكّدَ لأوفيد أنّ الخَطَرَ زالَ عن أماندا. فشكرَه أوفيد وحَمَدَ اللّهَ على أنّ أماندا لم تَمُتْ، وإلا لكانتْ سبّبَتْ له مَشاكلَ لا حَصْرَ لها.

٣٥ ـ عودة إلى باريس

ولنترُكْ أوفيد وأماندا قليلاً، ولنَعُدْ إلى باريس.

كانت لوسي شديدةَ القلقِ على لوسيان، فقد مرّ يومُ الأحدِ دونَ أن يزورَها. أما حنّة فلم تكن تجرؤ على إخبارِ لوسي بالحقيقة.

وذهبتْ لوسي في المساء إلى منزلِ لوسيان، فقال لها البوّابُ إنّه مسافر. لكنّ لوسي لمحتْ غرفتَه مضاءةً، فأرادتِ الصعودَ، لكن البوّابَ منعَها وقال: «لقد أعطاني السيّدُ لابرو أوصافَك، وأمرني أن أمنَعَكِ من الصّعود».

فكادتْ لوسي تُجنّ. وأسرعتْ إلى منزلها، وانفجرت بالبكاء. وحاولتْ حنّة أن تُهدىء من رَوْعها، فكانتْ تقولُ لها: «إنَّ وراء هجرِه إياكِ أسباباً قد تكونُ معقولة».

ـ «وما هي هذه الأسباب المعقولة»؟

ـ «لا تُحاولي أن تَبحثي عن السّببِ يا لوسي»!


ـ «إذاً أنتِ تعلمينَ السببَ»؟

فاضطربت حنّة، ثم قالت: «لقد زارني لوسيان، وأطلعَني على أشياء كنتُ أوَدُّ ألّا أخبرَكِ إياها، حتى أجنّبَكِ الهمَّ والعذاب».

لكنّ لوسي هدَّدَتْها بأنها، إن لم تخبرْها، ذهبت إلى مكتبِ لوسيان وأجبرتْه على إيضاح موقفه.

عندئذٍ لم يعدْ لحنّة خيارٌ، فأخبرتْ لوسي أنّها ابنةُ حنّة فورتيه. وهنا صاحتْ لوسي صيحةً قويّةً، واستسلمتْ لبُكاء كادَ يخنُقُها.

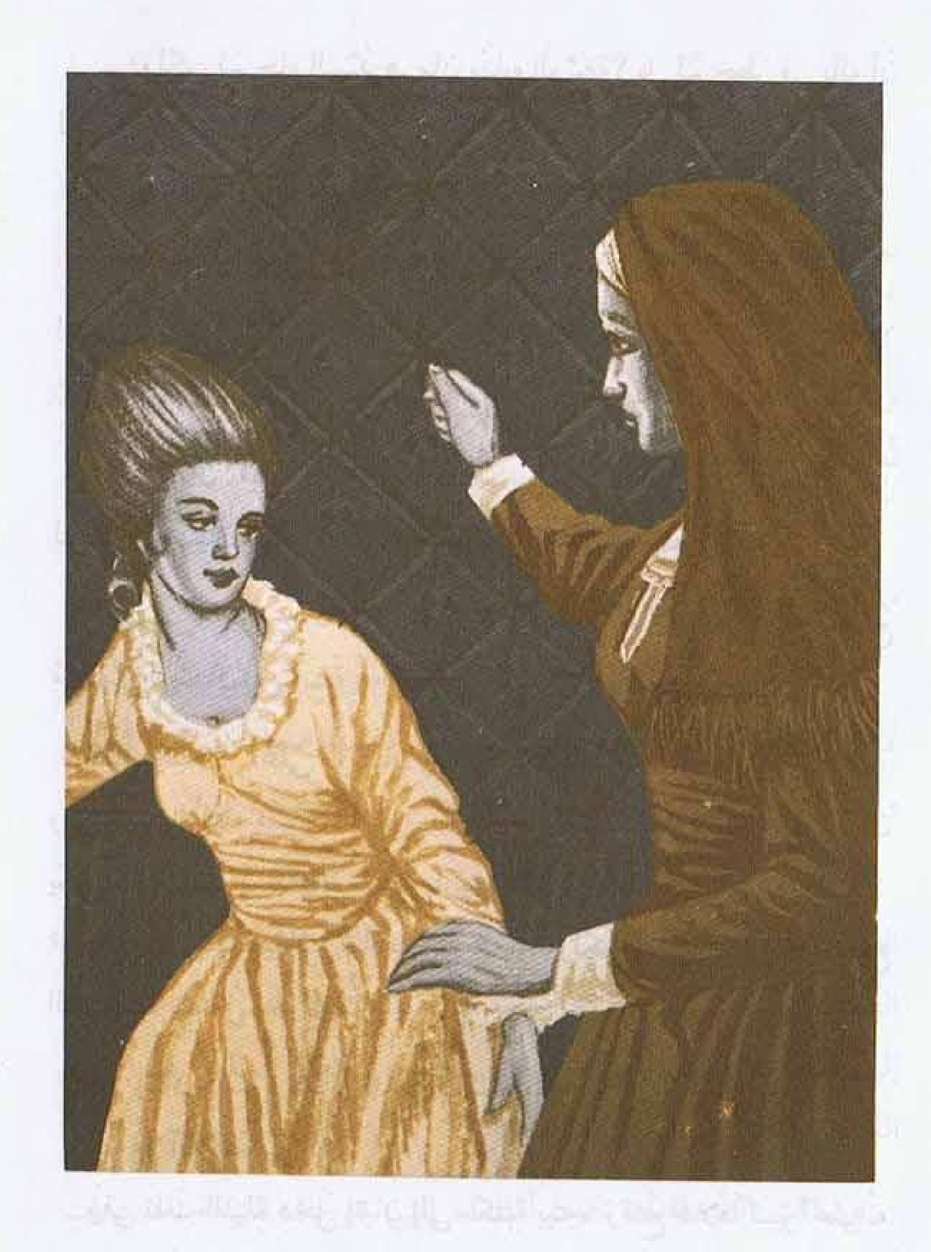
وكادتْ حنّة تقولُ لها إنّها هي أمّها وإنها بريئة، لكنها لم تقلْ لها ذلك، لأنها لم تكنْ تملك دليلاً على براءتها. ثم قالتْ للوسي: «لا تقنَطي من رحمةِ اللّهِ يا لوسي.. إنه لا بدّ أن يُظهر براءةَ أمّك».

في هذا الوقتِ بالذاتِ كان لوسيان منقبضَ الصدرِ، فخطرَ له أن يزورَ صديقَه جورج فورتيه.

وكان جورج آنذاك بصُحبةِ وصِيّه، الرسّام إتيان. وبعد أن جَلَسَ لوسيان أخبرَهما أنّه اكتشف أنّ الفتاةَ التي كان يُحبّها هي ابنةُ حنّة فورتيه.

فوقف الرسّامُ لشدّةِ دَهشَته، ثم قال للوسيان: «ومن أثبتَ لكَ هذا»؟

ـ «السيّدُ هرمان نفسُه. والوثيقةُ من قريةِ جواني التي كانتْ فيها المُرضِع».



وكادت حنة تقول لها إنها هي أمها

ـ «ولكن لمَ جاء السيّدُ هرمان بهذه الوثيقة؟ بل لمَ خطرَ في باله أنّ لوسي قد تكونُ ابنةَ حنّة»؟

ـ «لستُ أدري! ولكنّ الشرفَ يمنعُني من الزّواجِ بلوسي».

فقال جورج عندئذٍ: «إن كلامَكَ صحيحٌ يا لوسيان. يجبُ أن تنسى لوسي وتتزوجَ ابنةَ بول هرمان». ثم التفتَ إلى إتيان وقال له: «ألا ترى رأيي»؟

فقالَ إتيان: «بل إني أرى عكسَه. فإنّ الصُدفةَ التي جمعتْ بين لوسي ولوسيان، قادرةٌ على الجمعِ بين لوسيان وحنّة فورتيه».

فاعترضَ جورج قائلاً: «ولكنّ الصدفةَ قد لا تَجيء، فيضيعُ مُستقبَلُ لوسيان».

فقال إتيان: «على لوسيان إذاً أن يوهم هرمان أنه سيتزوّجُ ابنتَه، وفي هذه الأثناء سيبحثُ عن حنّة، وعن جاك جيرود الذي لا بُدَّ أن يكونَ موجوداً في مكانٍ ما في باريس». ثم التفتَ إلى لوسيان قائلاً: «سأبدأ بعض تحقيقاتٍ خاصّةٍ منذ الغد. ولكن أخبرْني عن الاختراعِ الذي كان يشتغلُ به والدُك».

فهزّ إتيان رأسَه، وكأنه قد أدركَ شيئاً ما.

ـ «هو آلةُ الصّقل».

وفي تلكَ الليلةِ دخلَ إتيان إلى مكتبةِ بيته، وفتحَ غلافاً كبيراً عنوانُه «جورج داريه، ١٨٦١» وأخذ يقرأ في محتوياته، وفيها ذكرٌ لجاك جيرود وبول هيرمان.

٣٦ ـ أماندا تعود إلى وعيها

عادت أماندا صباحَ اليومِ التالي إلى وعيها، وسألت أوفيد عمّا حدثَ لها فقالَ: «مجرّدُ نَوْبةٍ عصبيّةٍ عارِضَة..»

لكنّ أماندا عَرَفت أنه كاذِبٌ، وأن ما حدثَ لها لم يكنْ طبيعيًّا. وبذلك زادتْ ريبَتُها من ذلك الرجلِ الذي يدّعي أنه بارون، فقرّرتْ أن تحذَرَهُ حَذَراً أكبر.

وقالت أماندا لأوفيد: «سأكتُبُ إلى السيّدةِ أوغستين كتاباً أطلُبُ فيه منها أن تُطيل إجازتي أسبوعاً آخر».

ـ «لا بأسَ في ذلك، ولكن عليّ أن أفارِقَكِ يومين على الأقلّ، لأنّني كنتُ قد أخبرتُ امرأتي أنني لن أغيب عنها أكثرَ من أسبوع واحد».

وبعد ساعةٍ غادر أوفيد الفندق. وبينما كان يسيرُ على رصيفِ السّين لمحَ الطبيبَ الذي عالَجَ أماندا، فألقى عليه التحيّةَ، فردّها الطبيبُ ببرود. وانتبه الرجلُ المُسنّ، الذي كان يمشي مع الطبيبِ، إلى قَسَماتِ أوفيد، فعَرَفَه، وقال للطبيب: «تعالَ نجلسْ هناك على الحشائشِ، فأخبرَكَ عن هذا الرّجل».

وشاءت الصُدفة أن تكون أماندا، التي خرجت للنزهة بعد ذهاب أوفيد، جالسةً في تلكَ البُقعةِ التي جلسَ فيها الطبيبُ والرجلُ المسنّ. لكنّهما لم يرياها. وقال الرجلُ للطبيب: «إن هذا الرجلَ قد حاولَ

سَرِقَةَ أموالي عامَ ١٨٦١».

فقال الطبيبُ: «غيرُ معقولٍ.. فإنه بارون».

ـ «بل إنّه محتالٌ خطيرٌ، وهو يُدعى أوفيد سوليفو».

ثم أخبره بتفاصيلِ الحادثة، وأماندا تسترِقُ السَّمْعَ فلا تفوتُها كلمةٌ واحدة. وبعد ذلك ذكرَ الطبيبُ لصاحبه أنّ أوفيد قد سقى فتاةً تسكُن معه في الفندقِ، إكسيراً يجعل المرء يصابُ بنوبةٍ عصبيّةٍ ينطق على إثْرها بأسرارِه. ثم انتقلا إلى حديثٍ آخر، فرجعَت أماندا إلى الفندقِ وهي حانقةٌ، حاقدةٌ على أوفيد، مصرّةٌ على الانتقامِ منه.

وطلبتْ أماندا من إحدى خادماتِ الفندقِ، أن ترتّبَ لها لقاء مع دوشمان، الذي كان الطبيبُ قد نَصَحَه بالراحةِ في الفندقِ، فوعدتْها الخادمةُ بذلك.

٣١ـ في معمل الخياطة

ذهبت ماري إلى معملِ السيّدةِ أوغستين، وقد استعادتْ صحّتَها. ولمّا سألتْها السيّدة أوغستين إن كانتْ تُريد من لوسي أن تَخيطَ ثوبَ زواجِها، قالت ماري بعصبيّةٍ: «أرجوكِ ألا تذكُري اسمَ هذه الفتاةِ على مَسْمَعٍ منّي».

ـ «وما السببُ يا آنستي»؟

ـ «لا أريدُ أن أدخلَ في التفاصيل. غير أني لا أريدُها بعد اليوم أن

تَخيطَ ثيابي، أو تدخلَ منزلي».

ـ «ولكنّكِ قد جعلتني بكلامك هذا أرتابُ في أمرِ هذه الفتاة».

ـ «لن أقولَ شيئاً عنها».

وهنا فُتِحَ البابُ، ودخلتْ لوسي، وقد بدا عليها هُزالٌ شديد. وارتعشت لوسي لما رأتْ ماري، وقالت: «لقد بدأتِ الخيانة! وها أنتِ ذي تكملينَها».

فاضطربتْ السيدةُ أوغستين، وقالت للوسي: «ما هذا الكلامُ الذي تنطقينَه»؟

ـ «عُذراً ياسيّدتي.. ولكنّ هذه اللئيمةَ قد جاءت للنميمةِ، وللمسّ بشرفي».

فقالت ماري للسيّدة أوغستين: «أتسكُتينَ عن إهانتها لي»؟

لكنّ لوسي تابعتْ تقول: «أنسيتِ أنّكِ أنت كنتِ البادِئةَ بالإهانة»؟ فحاولتْ ماري أن تخرُجَ، لكنّ لوسي أمسكتْ بها وقالت للسيّدةِ أوغستين: «لن تخرجَ هذه الملعونةُ قبل أن أبَرّىء نفسي أمامَها». ثم روت للسيّدةِ أوغستين ما طلبتْ ماري منها في منزلها.

ولمّا فرغت قالتْ ماري للوسي، بلهجة ملؤها الغضبُ والخُبث: «ألا تخافين أن أفضحَ أمرَكِ.. أتظنّين أنني لا أعرفُ اسمَكِ»؟

فقالت لوسي: «إن كنتِ تعنين أمّي، فإن إدانتَها لا تُصيبني في

شيء، ولا تؤثّر على طهارتي.. نعم، أنا ابنةُ حنّة فورتيه المتّهمةِ بالقتلِ والسَرِقَةِ والحَرْق».

والتفتتْ ماري إلى السيّدةِ أوغستين وقالتْ لها: «إما أن تطرُديها، وإما أن أخرجَ من معملك دونَ رَجعة».

فقالت السيّدةُ أوغستين للوسي: «لم يَعُدْ لك مكانٌ هنا.. سأدفعُ لك تعويضَك الآن».

ورأتْ لوسي الابتسامةَ ترتسمَ على شفتي ماري، فقالت لها: «لم تكتفي بسلبِ خطيبي مني. وها أنت تتسبّبينَ بقطعِ رزقي. سينتقمُ اللّهُ لي منكِ يوماً». ثم التفتتْ إلى السيدةِ أوغستين، وقالت بصوتٍ ضعيفٍ: «لقد أسأتِ معامَلَتي يا سيّدتي».

ثُمّ انْصرفت.

في تلكَ اللحظةِ كان جورج داريه خارجاً من منزِله، حاملاً غلافاً فيه بعض الأوراقِ المهمّة. وسقطتْ من الغلاف وَرَقَةٌ دون أن ينتبهَ إليها جورج. وتشاء الصُدفة أن تكونَ حنّة عائدةً إلى منزِلها، فتعثرُ على تلكَ الأوراقِ في الطّريقِ، فتصمّمُ على إرجاعها لصاحبها، وقد كُتِبَ اسمُه عليها، في اليومِ التالي.

وكانت لوسي قد رَجَعَتْ إلى منزِلها. فلما دخلتْ حنّة إليه، ذُعِرَت لبكاءِ لوسي، وسألتْها عن السببِ، فقالت لها إن الضّربةَ القاضيةَ عليها كانت طردَ السيّدةِ أوغستين لها. وسألتْها حنّة عن السبب، فأخبرتْها

بما جرى، وقالت: «لقد حَصَلَ كلُّ هذا لأنني ابنةُ حنّة فورتيه».

وعزمت حنّة على أن تشكوَ ماري لمحامٍ بارعٍ، فأخبرتْ لوسي عن الأوراقِ التي وجدتْها، وقالت لها إنّها ستذهبُ حالاً إلى هذا المحامي، فقالت لوسي: «لكنّ لوسيان هو صديقُ هذا المحامي، وأخافُ أن يمتنعَ عن الدّفاعِ عني».

فقالت حنّة: «بل إنني سأحاولُ إقناعَ لوسيان نفسه بأن الحقَّ إلى جانبك».

وذهبت حنّة فعلاً إلى مكتبِ المحامي، لكنَّ الخادمَ أخبرَها أن المحاميَ مسافرٌ، وأنه سيرجعُ بعد أسبوعٍ واحد. فرجعَتْ حنّة إلى منزِلها، فوجدت أنَّ حُمى شديدةً قد أصابتْ لوسي، فاستدعتْ لها الطبيبَ على الفوْر.

٣/١ ـ العهد على الانتقام

كان دوشمان، الفتى الجريحُ، قد اضطرَّ لمغادرةِ قريةِ جواني. وذلك لأنّ الناسَ هناكَ لاحظوا أنّه كان يُنفق أكثرَ من راتبه بكثيرٍ، وذلك منَ المالِ الذي منحه إيّاه أوفيد. ولمّا عَلِمَ شيخُ البلدِ بكثرةِ إنفاقه، استدعاهُ، وطلبَ منه أن يُخبرَه بمصدرِ ماله، فرفضَ خوفاً من الفضيحة. وعند ذلكَ طردَه شيخُ البلدِ من وظيفته، فاضطرَّ لمغادرة القرية بحثاً عن عملٍ، فركبَ القطارَ الذي سبّبَ له الحادثةَ التي مرَّ ذكرُها.

وكانت أماندا، كما مرَّ، قد طلبتْ من إحدى الخادماتِ أن تهيّىء لها لقاء مع دوشمان، فلمّا تمَّ ذلكَ اللقاء، عجب دوشمان من وجودِها في الفندقِ، فطمأنَته وطلبتْ منه أن يعفوَ عن فعلتها السابقةِ معه. ثم سألته: «أتعرفُ البارون أرنولد»؟

ـ «لا! من هو هذا البارون»؟

ـ «إنه ذلك الرجلُ الذي اجتمعتَ به في جواني، وأخذَ منك السنديْنِ المزوَّريْن».

فاضطربَ دوشمان وقال: «وكيف عَرَفْتِ بالأمر»؟

ـ «لقد فعل بي الشيء عينَه». ثم أخبرتْه بالورقة التي يحتفظُ بها البارون. وقالت: «إن هذا الرجلَ يشكّلُ خطراً عليكَ وعليَّ في آنٍ معاً. ويجبُ أن نتّفقَ على خطةٍ للدّفاع عن أنفُسنا».

ـ «وكيفَ ذلك»؟

ـ «عليكَ أوّلاً أن لا تخافَ منه. إن سرَّه بين يديَّ، فقد حاولَ قتلَ فتاةٍ اسمُها لوسي..».

ـ «لوسي؟ إنه اسمُ الفتاةِ التي أعطاني النّقودَ من أجلِ إحضارِ وثيقةٍ تتعلّقُ بالملجأ الذي كانتْ فيه».

فابتسمتْ أماندا ابتسامةَ المُنتَصر. ثمّ قالت لدوشمان: «هذا الرجلُ مُجْرِمٌ خطيرٌ، واسمُه الحقيقيّ أوفيد سوليفو، وقد حاول قتلي بالسُمّ».

فقال دوشمان: «إذاً قد جَمَعَنا عدُوٌّ واحد.. وهو عدُوٌّ خطيرٌ يجبُ أن نَقضيَ عليه قبلَ أن يقضيَ علينا».

واتفقتْ أماندا مع دوشمان على الانتقام من أوفيد.

وفي صباحِ اليوم التالي، عادَتْ أماندا إلى باريس، وعَلِمَتْ من السيّدةِ أوغستين أنّها طردتْ لوسي بسببِ ماري، ابنةِ بول هرمان، كما عَلِمَتْ أن ماري ولوسيان سيتزوّجان قريباً، وأنّ لوسي هي ابنةُ امرأةٍ متّهَمَةٍ بالقَتْل. واستنتجتْ أماندا، بذكائها الغريبِ، أنّ أوفيد كان يعملُ لحسابِ بول هرمان، الذي حدّثَها عنه، وأن بول طلبَ من أوفيد قتلَ لوسي. فلما أخفقَ، طلبَ منه إحضارَ الوثيقةِ التي يستطيعُ بواسطتها أن يدنّس شرفَ لوسي، فيمتنعَ لوسيان عن الزواجِ بها، ويتزوَّج ماري.

وانتظرت أماندا حتى يومِ الأحدِ، فذهبت إلى الفندق، وأخبرتْ دوشمان باستنتاجها، فوافقَها على رأيها وجدَّدَ العهدَ معها على الانتقامِ من أوفيدِ.

٣٩ ـ في منزل إتيان

لم تُخْبر ماري والدَها بأمرِ لوسي، لأنّها كانتْ تشعرُ في قرارةِ نفسها أنها ظَلَمَتْ تلكَ الفتاةَ، وسبّبَتْ طردَها من وظيفتها.

وعلى الرَّغمِ من تحسّن صِحّة ماري، فإنّ هذا التحسّنَ كان عَرَضاً

لا يدوم. وكان لوسيان يَعْلَمُ ذلك، ويُشْفِقُ عليها، لكنه كان يرى أن الزَواجَ بها أمرٌ مستحيل. أما جاك فكان ينتظرُ شفاء لوسيان من صَدْمَته العاطفيةِ، حتى يَطْلُبَ الزواج بماري.

وفي اليوم الذي ذهبتْ فيه أماندا إلى غابةِ الملك، لقضاء إجازتها، كان الرسّامُ إتيان يستعدّ لاستقبالِ جورج، ولوسيان في منزله. ووصل لوسيان أوّلاً، فسألَ المصوّرَ: «ماذا كانتْ نتيجةُ استطلاعاتك»؟

ــ «علمتُ أن حنّة فورتيه لم تَعُدْ إلى السّجن».

ــ «إذن لا أملَ لي بلقائها».

ــ «الصّدْفَةُ وحدَها كفيلةٌ بهذا اللقاء.. ولكن قُلْ لي: هل أخذتَ تتقرّبُ من ماري هرمان»؟

ــ «نوعاً ما.. وأيةُ فائدةٍ في ذلك، فإنها في طريقها إلى القبر».

ــ «في ذلكَ فائدةٌ قد تجهلُها أنتَ.. ثمّ إنَّ مرضَها يجبُ أن يشجّعَك على التقرّبِ منها، حتى تُسعدَها، فتجعلَها تموتُ وهي تَظُنّ أنّكَ ستتزوّجُها».

ــ «يبدو أنك تعرفُ أموراً كثيرةَ تحاولُ إخفاءها عنّي».

ــ «لا.. ولكن قلبي كثيراً ما يحدّثُني بأشياء صحيحة. فأنا أشعرُ أننا سنجدُ قاتل أبيكَ، وسنلتقي بحنّة فورتيه، وأن لوسي ستُصْبحُ امرأتَكَ.. كلّ ما أريدُه منكَ هو أن تُطيعَني لُمدَّةِ أسبوعيْنِ، فلا تَرُدّ لي طلباً».

ــ «إن كنتَ ترى مصلحتي في هذا، فأنا سأكونُ تحتَ تصرّفك».

ــ «إذن عليكَ أوّلاً أن تَجيئني بوثيقةِ الملجأ التي حدَّثْتَني عنها، فهل هذا ممكن»؟

ــ «سآتيكَ بها غداً».

وهنا جاء جورج وألقى التحيّةَ على لوسيان، وإتيان. وبعد قليلٍ أخبرَهما أنه فقدَ الأوراقَ. ثم تناولا طعام الغداء، وانتقلا بعد ذلكَ إلى غُرفةِ الرّسوم.

ودخلَ الخادمُ يُعلمُ إتيان أن آنسةً تُدعى ماري هرمان تريدُ أن تكلّمَه، فأمرَه بإدخالها. وسُرّتْ ماري بوجودِ لوسيان. ثم قالتْ لإتيان: «إن أبي سيجيء إلى بيتك بعدَ حينٍ، ولذلكَ أتيتُ لأطلُبَ منكَ أن تُغَطّيَ صورتي التي سأهديه إيّاها في عيدِ ميلادِه، حتى تكونَ مفاجأةً له في عيده».

فقال إتيان: «لا تخافي..». ثم قال لها: «لقد كنّا نهنّىء لوسيان على عَزْمه الزواجَ بك».

فاتّقدتْ عينا ماري، ونظرتْ إلى لوسيان قائلةً: «أصحيحٌ هذا يا لوسيان»؟

فقال لوسيان، وقد وعدَ الرسّامَ باتّباعِ أوامرِه: «طبعاً يا آنستي».

وتدخّل إتيان قائلاً: «لقد قرّرَ لوسيان هذا، بعد أنْ وجدَ أن سعادتَه ستكونُ بالزواجِ بك. ويسرّني أنْ أكون شاهداً على القران».

أما جورج الذي لم يكن عارفاً بالاتّفاق الذي كان بين إتيان ولوسيان، فكان في حَيْرة من أمرِه لِما سَمع. وبعدَ قليلٍ وصلَ بول هرمان، فجلسَ جاك مع الموجودين، ثم قال لإتيان: «لقد جئتُك لأسألَكَ عن لوحةٍ قيلَ لي إنّها من صُنْعِ رفائيل».

ـ «سأرى هذه اللوحةَ يا سيّدي. ولكنِ اسمَح لي أن أخبرَكَ أوّلاً أنني أودّ زيارتَكَ قريباً، بالنيابةِ عن لوسيان، فإنّه يتيمٌ لا أهلَ له».

فابتسم بول قائلاً: «لقد فهمتُ قصدَك..».

ـ «نعم يا سيدي. سآتي لأخطُبَ ابنتَك للوسيان».

فقال بول: «إنّي موافقٌ كلَّ الموافقة على ذلك».

فقامتْ ماري وعانقت أباها باكيةً، ثم قالت: «إنها دموعُ الفرح.. أرجو أن تعذروني».

ثم انصرفتْ تاركةً والدَها مع الموجودينَ الذينَ كانوا يستعدّونَ لتناولِ طَعام العشاء. وبعد الطّعام صافح جاكُ لوسيانَ وقال: «شكْراً يا لوسيان.. لقد أدْخَلْتَ السعادة إلى قلبي وقلبِ ابنتي».

وبعدَ قليلٍ طلبَ جورج من إتيان أن يعرِضَ على السيّدِ هرمان، ولوسيان، رَسْمَ الحادثةِ التي وقعتْ في منزِلِ كاهنِ شيفري منذ واحدٍ وعشرينَ عاماً. فقام إتيان ليكشفَ الستارَ عن اللوحة، وهو يراقبُ بول. وما إن رأى بول وجهَ حنّة حتى اضطربَ. لكنّه أخفى اضطرابَه، الذي لاحظَه إتيان، وقال: «ماذا تمثّل هذه اللوحة»؟

فشرحها له إتيان، بينما كان لوسيان يقولُ: «يا لله! ما هذا الشبهُ الغريب»؟

فقال إتيان: «تعني شبهَ لوسي بحنّة؟ لا تنسَ أنها أمّها».

ـ «لا أعني هذا.. بل أعني الشبَهَ بين حنّة وبين امرأةٍ تُدعى الأرملةَ ليزا، وهي بائعةُ خبزٍ تُقيم مع لوسي».

فاضطربَ بول هرمان من جديد، وقالَ في نفسه: هل يمكنُ أن تكونَ بائعةُ الخبزِ التي يتكلّمُ عنها لوسيان، هي نفسُها حنّة فورتيه؟ وهل يُعْقَل أن تُكتشفَ أعمالي بعدَ هذه المدّة؟!

لكنّ بول أخفى اضطرابَه مَرّةً أخرى وقال: «هل أستطيعُ شراء هذه اللوحة»؟

فقال إتيان: «لا أظُنّ أن جورج سيتخلّى عنها، فقد وعدتُه بإهدائها له.. ثم إن فيها صورةَ خاله الكاهنَ، وصورةَ أمّه، أختِ الكاهن».

ثم شرع إتيان بسؤالِ بول عن اسم والده ووالدته، لكتابةِ ذلك في صَكّ الزواج. فدوّن ما كان يقوله له بول، واحتفظَ به.

وبعدَ قليلٍ قام بول، وودّعَ الجميعَ، ثم قالَ للوسيان: «سأعطي ابنتي مليون فرنك وأعطيكَ مليوناً آخر، حالما يَتمّ الزّواج».

فقال إتيان: «وهكذا تكونُ قد أرجعتَ إلى لوسيان ما سلبَهُ منه السّفّاح، قاتلُ أبيه».

فاصفرّ وجهُ بول، وانصرفَ مع لوسيان.

وحينَ صارَ إتيان وحيداً مع جورج، صارحه إتيان بشكوكه ببول هرمان، دون أن يقولَ له إنُّه يتّهمه صراحةً.

وفي اليومِ التالي أرسلَ لوسيان إلى الرسّامِ وثيقةَ الملجأ، فانطلقَ بها إتيان إلى صديقٍ له كان نائباً لوزير الداخليّة. ثمّ رجعَ إلى منزله وأخبرَ خادمَه أنّه سيُسافر، وطلبَ منه كَتْمَ أمرِ سَفَرِه عن الجميع، وحتّى عن جورج.

٤٠ ـ ليزا بيرين أم حنة فورتيه؟

بعد أن تحسّنتْ صِحّةُ لوسي، تركَتْها حنّة للذّهاب إلى منزلِ المحامي جورج لتُعيدَ إليه أوْراقَه الضّائعة.

ولمّا استلم جورج أوراقَه من حنّة أرادَ أن يكافئها، فرفضتْ وقالتْ: «إن أرَدْتَ أن تكافئني ما عليك إلاّ أنْ تُجيبَني عنِ استشارةٍ قانونية».

ــ «بسرورٍ بالغٍ أيّتُها السيّدة».

ــ «هل يُعاقبُ القانونُ شخصاً يقطعُ رِزقَ فتاةٍ مسكينةٍ لأنَّ أمّها كانت مُجْرِمَة»؟

ــ «إن هذا العملَ شنيعٌ جدًّا، لكنّ القانونَ لا يطالُه».

ثم روت له حنّة قصّةَ لوسي، في طفولتها، وعملها، وطَرْدِها من العمل. فتأثّر جورج تأثّراً كبيراً، وقالَ لها: «لقد عَرَفْتُ تلك الفتاة حين ذكرتِ اسمَها، ولكنّي لم أكنْ أعلمُ أنّها تعذّبَتْ إلى هذا الحدّ».

ــ «أرجوكَ يا سيدي. تستطيعُ أن تكلّمَ لوسيان وبول هرمان بشأنها. فإن الأوّلَ يجبُ أن لا يأخذَ الفتاةَ بجرُمِ أمها، وأما الثاني فعليه أن يعيد لوسي إلى عملها، لأن ابنتَه كانتِ السببَ في طردها».

ــ «أنت ليزا بيرين، أليسَ كذلك»؟

ــ «نعم! ولوسي كابنتي».

وهنا دخلتِ الخادِمةُ وقالت لجورج إنّ بول هرمان ينتظرُه في قاعةِ الانتظارِ، فقال جورج لليزا: «هيّا نكلّمْه! إنه أمَلُكِ الوحيد».

وقامت ليزا مع جورج إلى القاعةِ، فصارتْ وَجْهاً لوجه أمام جاك جيرود. لكنّ الأيّامَ كانَت قد غيّرتْهُما إلى حدّ لم يستطيعا معه معرفةَ أحدهما الآخر.

ثم ركعت ليزا وتضرّعتْ لبول هرمان بشأنِ لوسي. ولمّا سَمِعَ صوتَها عَرَفها على الفور، ثم قال: «لا يمكنُني أن أساعدَكِ أيّتُها الأرملةُ، إذ كيفَ أفسخُ زواجاً فيه سعادةُ ابنتي»؟

ــ «ولكنّ لوسي المسكينةَ تتعذب!»

ــ «إن اهتمامَكِ الشديدَ بلوسي يوحي إليَّ أنّكِ لستِ إلاّ حنّة فورتيه الهاربةَ من السّجن».

فارتَعشتْ حنّة حتى كادتْ تسقُطُ أرضاً، وحاول بول أن يخرُجَ من

المنزلِ لينادي الجنودَ لكن جورج منعَه قائلاً: «إنّها في بيتي، ولن يؤذيَها أحد». ثم قال لليزا إنها تستطيعُ الخروجَ آمنَةً، فخرجت.

وحاول بول أن يتبعَها لكن جورج قال له: «لقد جئتَ لتبحثَ معي في بعضِ الأمور، أليس كذلك»؟

فسكت بول وبقي في منزل جورج.

أما جورج فكان يقولُ في نفسه: إن كانتْ هذه المرأة هي حنّة نفسُها، فإنّها جديرةٌ بالاحترامِ لأنّها تدافعُ عنِ ابنتها. وإنْ كانتْ هي الأرملةُ ليزا، فإنّها جديرةٌ بالاحترامِ أيضاً، لأنّها تدافعُ عن فتاةٍ مظلومةٍ بدافعٍ من المُروءة.

وأما حنّة فكانتْ خائفةً من أن يَشيَ بها بول هرمان، كما كانتْ حزينةً لحالةِ لوسي عندما علِمَتْ أن القانونَ لا يطالُ من يذكُر لشخصٍ ما عارَ أمّه.

وفي اليومِ التالي توجّه بول إلى منزلِ أوفيد، وأخبرَه بما حدث في منزلِ جورج المحامي. فقال أوفيد: «لا شكَّ أنّكَ أخطأتَ في تَصرُّفكَ حين عَرَفْتَ حنّة.. ولكنْ لا بأسَ، فسأرْسلُ رسالةً إلى الشرطةِ أعلِمُهمْ فيها بمكان وجودِ حنّة».

ــ «إيّاكَ أن تَفْعَلَ ذلك.. فسيعلمُ جورج عندئذٍ أنّني أنا الواشي. إنّ موقفي خطيرٌ، فجورج يرتابُ بأمري، ولوسيان يرى أنّ حنّة بريئةٌ، وكذلكَ الرسّام إتيان.. لقد قُضيَ عليّ».

ــ «لا تقنط أيّها الرّجل. سأتولّى قتلَ حنّة فورتيه بنفسي. فأنا مُستَعِدٌ لقتلِ نصفِ سُكّانِ الأرضِ إكراماً لكَ، وتأميناً لحياتي».

ــ «ولكنّ القتلَ يجبُ أن يَبْدُوَ للشُرطة كأنّه قضاء وقدر».

ــ «لا تَخَفْ شيئاً».

وفي صباحِ اليومِ التالي تنكّر أوفيد، وذهبَ إلى منزلِ لوسي وحنّة، فرأى امرأةً تحملُ سلّةَ خُبْزٍ، فأيقنَ أنّها حنّة، فتبعها.

٤١ ـ مسعى جديد لإتيان

اجتمع إتيان، ضمنَ مساعيه، برئيسِ الشّرطة، فطلبَ معلوماتٍ عن بول هرمان، الميكانيكيّ، الذي وُلدَ عام ١٨٣٢. وكان إتيان قد حَفظ هذه المعلوماتِ من الورقةِ التي سَجّلَها من بول نفسه، من أجلِ الإعدادِ للزواج.

وأحضرَ رئيسُ الشّرطةِ شُرطيًّا كان قد عَرَفَ بول هرمان، فأخبره عن طفولة بول ودروسه. ثم قالَ إتيان: «وهل ماتَ بول في المستشفى»؟

ــ «لا. بل سافرَ إلى أميركا، وعمل مع جيمس مورتيمر في مصنعه».

وكادَ إتيان عندئذٍ يقنَطُ من التّحقيقِ الذي يُجريه. لكنّه تَوَجّه في

اليومِ التالي إلى دارِ المَشْيَخَة التي سُرِقَ منها سجلّ لوسي. ولمّا رأى شيخُ البلدِ الوثيقةَ الأصليّة بحوزةِ إتيان دُهش. ولمّا كان دوشمان مسؤولاً عن السجلاّتِ عَرَفَ شيخُ البَلَدِ أن دوشمان قد سَرَقَ السجلَّ مُقابلَ النُقودِ التي كان يُنْفقُها.

وأخبرَ شيخُ البلد إتيان أنّ دوشمان في غابةِ المَلك، فتوجه إتيان حالاً إلى هناك، وسألَ عنه لكنّ الخادم قال: «إنه مُسافرٌ مع الآنسةِ أماندا، وإنهما سيعودان يومَ الأحد».

— «ومن هي أماندا هذه»؟

— «إنها فتاةٌ جميلةٌ جاءتْ مع البارون أرنولد، الذي سافرَ منذ أيّام».

فشكره إتيان، وقد أضحى واثقاً من أنّ البارون هذا، ما هو إلا من أعوانِ بول هرمان، وأنّه حصلَ على السجلّ بمساعدةِ دوشمان. لكن إتيان لم يكن قادراً على عَمَلِ شيء ما، لأنه كان يجهلُ مكانَ وجود دوشمان، وأماندا، والبارون المزيّف. فتوجّهَ عندئذٍ إلى منزله، وعَلِمَ أن جورج كان يسألُ عنه، فذهبَ إليه وأخبرَه أنّه قامَ ببعضِ التحقيقاتِ والاستطلاعات.

ثم قال إتيان: «كنتُ أشُكّ في بول هرمان، لكنّني الآنَ واثقٌ من أنّ شَكّي لم يكُنْ صحيحاً».

— «إذن تخلّيْتَ عنِ استطلاعاتك»؟

— «طبعاً»!

لكن إتيان كان يَكذِبُ، لأمرٍ في نفسه. فهو كان باقياً على شكّه ببول هرمان، بسبب اختراعه الذي يطابق اختراعَ والد لوسيان، وبسببِ وثيقةِ الملجأ.

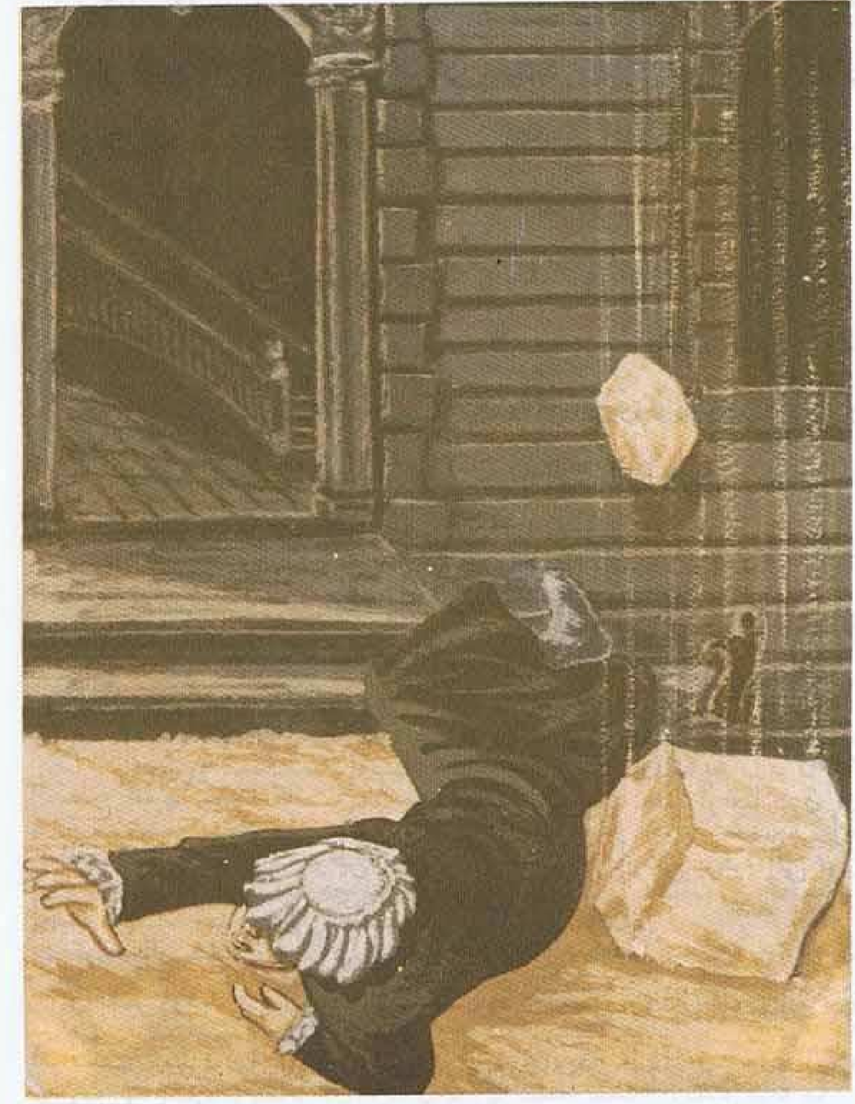
٤٢ـ تعاوُنُ محمود

بعد أن شُفي دوشمان، دفعتْ له شَرِكَة السكّةِ الحديديّة تعويضاً قَدْرُه خمسةُ آلافِ فرنك. فضمّ هذا المبلغَ إلى مالِ أماندا، وقد صمّما على الانتقامِ من أوفيد. فقد أخبرتْ أماندا دوشمان أن أوفيد على اتّصالٍ ببول هرمان، لأنّه أعطاه الوثيقَةَ، وأن أوفيد لا يزورُ بول في المعملِ، بل إن بول يذهبُ بنفسه إلى منزلِ أوفيد.

أما أوفيد، فكَمَنَ لحنّةَ على سَطْحِ بنايةٍ خَرِبَةٍ، وأسقطَ حَجارة من السّطح عليها بينما كانت تَمُرُّ من هناك، فوقعت حنّة أرضاً دون أن تُصابَ إصابةً خطيرة. وظنّ أوفيد أنّها ماتتْ، فأرسلَ برقيّةً إلى بول يُعلمُه فيها أنه سيجيء إلى مَعْمَله في السّاعة السّابعة.

وحضر أوفيد في الوقتِ المحدّد إلى المَعْمَلِ، وقال لبول إن حنّة قد قُتلت. ثمّ قال: «والآنَ لم يَعُدْ لي رجاء من البقاء في هذهِ البلاد وسأنطلقُ إلى أميركا».

— «إذن سأرسلُ لكَ راتبَك إلى هناكَ شهريًا. فأنا لم أعُدْ بحاجةٍ إليك».



وأسقط عليها حجارة من السطح فوقعت حنة أرضاً

ــ «أفضّل أن تُعطيَني مالي دَفْعَةً واحدة».

ــ «ولكنّك ستُنفقُه بسرعة».

ــ «لا تَخَفْ. فأنا لا أريدُ أن ينقطعَ رِزقي إن مُتَّ أنتَ لا سَمَحَ الله».

واتّفقا على أن يُعطيَه بول مبلغَ خمسمائةِ ألفِ فرنك، على أن يُسافرَ أوفيد بعد أيّام.

وبعدَ قليل انطلقا في المركبَة، وكان دوشمان يُراقبُ المعملَ، فتبِعَهما. ولكن أوفيد تنبّه إلى أن مركبةً أخرى تلحقُ بمركبتهما، وظنّ أن أماندا فيها، فضلّل المركبةَ بمهارة.

وفي اليومِ التالي كان دوشمان وأماندا في قاعةِ الفُندقِ، فتقدّم منهما إتيان، بعد أن سألَ صاحبَ الفندقِ عنهما، وانضمّ إليهما قائلاً إنه يريدُ أن يُكَلّم دوشمان على انفرادٍ، فقال دوشمان: «إن الآنسة أماندا زميلتي، وأنا لا أخفي عنها شيئاً».

ــ «حسنٌ جدًا.. اعلم أنني جئتُ لمساعدتك، فلا تَخَفْ! لقد علمتُ بأمرِ السجلّ الذي أخذتَه من مَشْيَخَةِ البلد»، فاصفرّ وجهُ دوشمان، لكن إتيان تابعَ يقولُ: «سأنقذُكَ إن أنتَ أخبرتَني باسمِ الشخصِ الذي طلبه منك، وسأستعملُ نفوذي في وزارة الداخليّة لأمنعَ ملاحَقتَك».

وهنا لم يجدْ دوشمان وأماندا بدًا من إعلامِ إتيان باسمِ أوفيد،

وأخبراه بأمرِ الأوراقِ التي يحتفظُ بها، ليُسيطرَ عليهما. وعلم إتيان منهما باتّصالِ دوشمان ببول. واتّفق الجميع على إرسالِ برقيةٍ إلى بول، باسم أوفيد، تقول: «وافني الليلةَ إلى منزلي»، على أن يراقبَ دوشمان بول هرمان، ويتبعَه، فيعرفَ منزلَ أوفيد، ويأتيَ مَرّةً ثانيةً إليه، فيستوليَ على الأوراق.

ثم افترقوا، وقد اطمأنّ كلّ واحدٍ منهم إلى نزاهة صاحبَيْه وإخلاصِهما.

٤٣ ـ حفلة موفّقة

بعثَ أوفيد برسالةٍ غيرِ موقّعة إلى الشّرطة، يقولُ فيها إن حنّة فورتيه تنتحلُ اسم ليزا بيرين، التي تعمل في مخبزٍ في العاصمة.

وبعد يومينِ صادفَ وجودُ أوفيد في المقهى الذي يجتمعُ فيه باعةُ الخبزِ، فسَمعَهم يتكلّمونَ عن حفلةٍ يريدون إقامتَها تكريماً للأرملةِ ليزا بمناسبةِ شفائها. وسُرَّ أوفيد لهذا، ودفعَ رسماً لدخولِ الحفلةِ التي ستقامُ في اليومِ التالي.

وفي اليومِ التالي ذهب أوفيد إلى المقهى لحضورِ الاحتفالِ، وجلسَ في مكانٍ قُربَ الرصيف. وشاءت الصّدفةُ أن تَمُرَّ أماندا من ذلك المكانِ، فترى أوفيد دونَ أن يراها، فتدخل إلى المقهى وتجلسَ في مكانٍ تستطيعُ مراقبتَه منه، دون أن يشعر بها.

وبعد قليلٍ نادى أوفيد خادمةً في المقهى وأخذَ يمدحُ الأرملةَ ليزا أمامَها. ثم قال لها: «سأعطيكِ هذينِ القُرطين إن وضعتِ بعض نقاطٍ من هذا المشروبِ في كأسِ الأرملة ليزا، فهذا المشروبُ سيجعلُها تغنّي. فنسمعُ صوتَها الذي يُطرب الدنيا».

ـ «وهل لها صوتٌ جميل»؟

ـ «إن صوتَها معجزةٌ من المعجزات. وسنُسرّ جميعاً بها. ثم إني حضّرتُ لها قُرطين جميلينِ سأهديهما لها تعبيراً عن تقديري لها».

فوافقتِ الخادِمةُ شاكرة. أما أماندا التي سمعتِ الحديثَ، فأسرعتْ إلى الخادمةِ وأخبَرَتْها بأمرِ أوفيد، واتّفقتْ معها على وَضْعِ المشروبِ في كأسه هو، حتى يَنْطقَ بأسرارِه.

وبَدَأ الاحتفالُ، وقام أوفيد فسَلّمَ هديّتَه إلى حنّة، وشرِبَ نخبها مسروراً بوجودِ الجُنودِ الذينَ حضروا للقبضِ على الأرملةِ ليزا بعد أنْ وَصَلَتْهم رسالةُ أوفيد غيرُ الموقّعة.

وبعد قليلٍ انتَفَضَ أوفيد وارتعشَ ارتعاشاً شديداً ثم أخذَ يبوحُ بأسراره، فذكرَ أنه ليسَ البارونَ أرنولد، بل أوفيد سوليفو، وذكرَ ما فَعلَه لحساب جاك جيرود الذي قَتَلَ جيل لابرو، وانتحلَ شخصيّةَ بول هرمان. ثم التفتَ إلى حنّة وقال: «وأنت لست الأرملة ليزا بل إنّكِ حنّة فورتيه، وستعترفينَ الآن بكلّ شيء حالَما تشربينَ من هذه الكأسِ التي في يدِك».

فصرخت حنّة قائلةً: «اسكُتْ». لكنّه ظلَّ يقولُ «أنت حنّة.. أنت حنّة». فلم يكنْ من حنّة إلا أن صرختْ تقولُ: «نعم! أنا حنّة فورتيه.. ولقد سَمِعْتُمْ اعترافاتِ هذا الرجلِ التي تُثْبِتُ أنني لستُ مجرمة. فاحكموا عليَّ، فإنني أرضى بحُكمكم».

وهنا تقدّم الجنودُ نحوَها، ليقبضوا عليها، لكن الجمهورَ تحلّق حولَ حنّة وسهّل فرارها. فاكتفى الجنود بإلقاء القبضِ على أوفيد.

أمّا أماندا فقد رَجَعَتْ إلى منزِلها، فوجدتْ كتاباً من دوشمان يقولُ فيه إنّه وَقَفَ على آثارِ أوفيد، وإنّه لن يعودَ الليلةَ إلى المَنْزِل.

٤٤ - النهاية

نُقِلَ أوفيد إلى السّجن، ورفضَ أن يَعتَرِفَ بشيء مما قاله.

أما بول فقد ذهبَ في تلكَ الليلةِ إلى منزلِ أوفيد، بعد أن وَصَلَتْهُ البرقيّةُ، وكان دوشمان يَتْبَعُه. ولما لم يجدْ بول أوفيد في منزله. خلعَ البابَ، وانتظرَه في الداخلِ، فلمّا لم يأتِ انصرفَ بول، ودخلَ دوشمان خلْسَةً إلى المنزل وعثرَ على سنديْه، وعلى الورقةِ الخاصةِ بأماندا، وعلى شهادةِ المستشفى الذي ماتَ فيه بول هرمان الأصيل.

وانطلق دوشمان إلى أماندا، وذهبا معاً إلى مَنْزِلِ إتيان فأخبره دوشمان بما فعل. وكان في الغُرْفَةِ حَمّال ينقل اللوحةَ والحِصان الخشبيَّ القديمَ إلى جورج داريه. ووقعَ الحصانُ الخشبيّ فانكسر

وتبعثرَ ما في جوفه، فحزِنَ إتيان لهذا، لأنّ جورج يُحبّ حصانَه القديمَ الذي يعتبرُه ذكرى من أمّه، أختِ الكاهن. وراح إتيان يجمعُ الأوراقَ التي تناثرت من جوف الحصان، فوجد فيها رسالةَ جاك جيرود إلى حنّة، التي كُتِبَتْ عام ١٨٦١، فصاحَ صيحةَ الانتصارِ، وأرسَلَ خادِمَه ليجيء بلوسيان لابرو حالاً.

ولمّا وَصَلَ لوسيان هنّأه إتيان قائلاً: «لقد توصّلنا إلى مَعْرِفَةِ قاتلِ أبيك، وقد ساعَدَني هذا الرّجُل الطّيّبُ، دوشمان، في ذلك».

فالتفتَ لوسيان إلى دوشمان وقال: «ومن هو القاتل؟ أخبروني»!

فقال إتيان: «سأخبرُك بعد قليل. أما الآن فإننا سنذهبُ جميعاً إلى منزلِ جورج داريه».

في تلكَ الأثناء كانتْ لوسي قَلِقَةً على الأرملةِ ليزا التي لم تَعُدْ إلى المنزلِ بعد هَرَبِها من الجُنود. وذهبتْ لوسي إلى منزلِ المُحامي جورج فأخبرتْه بالأمرِ، فطمأنَها جورج، وقال: «إنّ هذه الأرملةَ الطيّبةَ هي حنّة فورتيه عينُها».

فصاحتْ لوسي: «أهي أمّي؟ أرجوكَ يا سَيّدي أن تُصدّقَ أنّها بريئة».

ـ «لا تخافي، فسوفَ أتولّى قضيّتَها بنفسي».

وهنا دخلَ لوسيان وإتيان ودوشمان، فقال إتيان لجورج: «اليومَ قد بلغتَ الخامسةَ والعشرينَ يا بُنيّ. وسأنفّذ الآنَ وَصيّةَ الكاهنِ رَحمَهُ



الله، وأقرأ عليكَ هذا الكتاب :

ابني العزيزَ

في شهرِ أيلولَ سنةَ ١٨٦١ جاءتْ بك إليْنا امرأةٌ متّهَمَةٌ بالقتلِ والحَرْقِ والسّرِقَة، واسمها حنّة فورتيه، وأقْسَمَتْ أنّها بريئةٌ، وقد صَدَّقْتُها. ثم قَبضَ عليها الجُنود، فتولّيْنا نحن أمرَ تربيتك . . ».

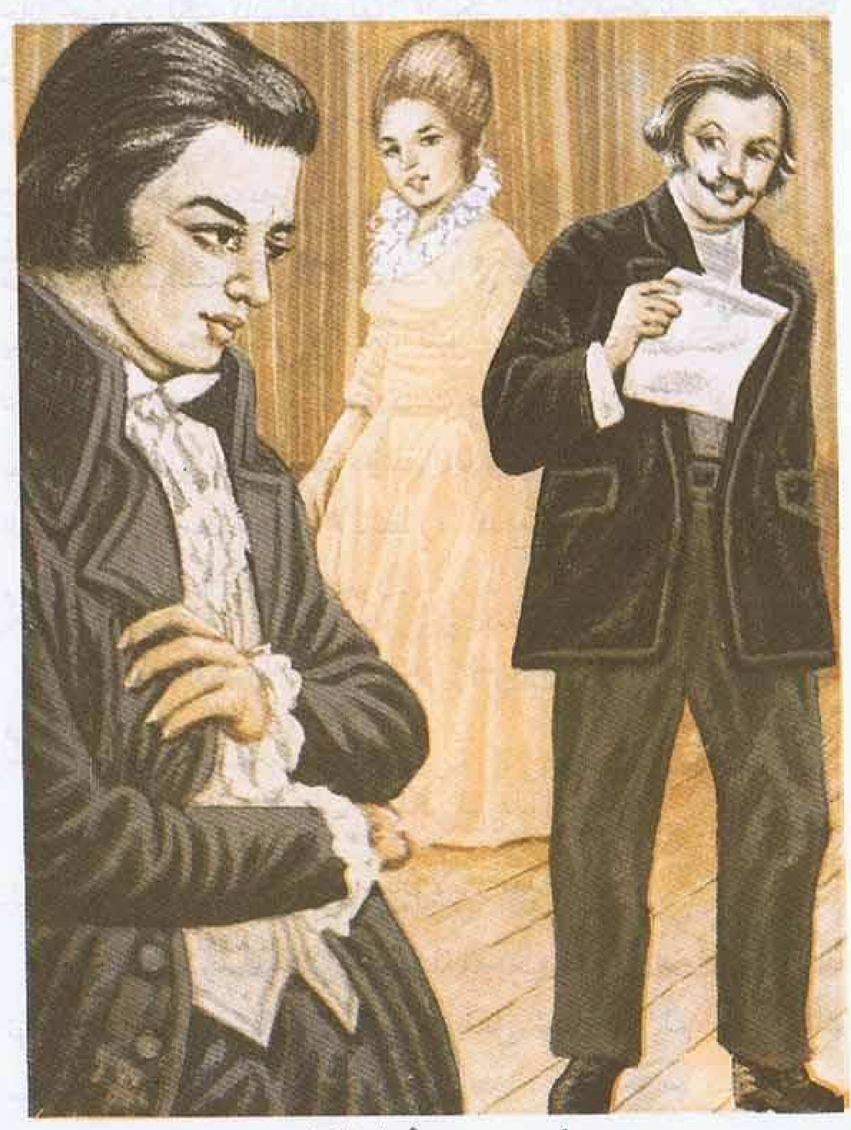
وهنا بكى الجميعُ وتعانقَ جورج ولوسي وهما لا يكادانِ يصدّقان أنّهما أخوان. وقال جورج: «مسكينةٌ أمّنا. . إنّها مظلومةٌ، ولا دليلَ على براءتها».

فتقدّم إتيان منه، وقرأ عليه الكتابَ الذي وَجَدَه في بطنِ الجوادِ الخشبيّ، ففرِحَ الجميعُ فَرَحاً لا يُوصف. لكنّ جورج قال: «ولكنّ جاك جيرود قد مات».

فقال إتيان: «لا! فإنّك إن قارنتَ بين خطّ بول هرمان، ولا بدّ أن يكونَ لديكَ وَرَقَةٌ من خَطّه، وخطّ جاك جيرود، لَوَجَدْتَ أنّهما شخصٌ واحد».

فقام جورج ووجد وَرَقَةً في ملفّ خاصّ ببول هرمان، بخطّ بول نفسه، وقارنها بخطّ الرسالةِ فوجدهما خطًّا واحداً. وهنا أخذ لوسيان يَلْعَنُ بول ويُدْرِكُ أنّه كان مُنخَدِعاً به، ثم تقدّم نحو لوسي وعانقَها. وطلب إتيان من الموجودينَ التوجّهَ معه إلى منزل بول هرمان.

أما حنّة فورتيه فكانت في ذلكَ الوقتِ عند بول هرمان، تتّهمُهُ بأنّه



فتقدّم إتيان منه وقرأ عليه الكتاب

جاكْ جيرود، لكنّه كان يقولُ لها: «اسكتي. إنّكِ مجنونة». ثم دخلتْ ماري فاضطرب بول وقال: «إن هذه المجنونةَ تَهذي.. سنطرُدُها من المنزِل».

ولكنّ حنّة خاطبت ماري قائلة: «لستُ مجنونةً، يا آنستي. إنّني ضحيّةُ والدِك السّفّاح». ثم أخبرتْ ماري بكلّ أمرٍ، في حينَ كان بول يحاولُ مَنْعَها من الكلام. وبعدَ قليلٍ انقضّ بول على حنّة يحاولُ خنقها، فأدركت ماري أن حنّة كانت صادِقَةً في ادعائها. وبينما كان بول مُنْقَضًا على حنّة وصل دوشمان، ومَن معه إلى المنزِل، فأخبرَ الخادمُ بول هرمان أن هؤلاء بانتظارِه. فدفع بول حنّة إلى غُرفةٍ أخرى وأقفلَ بابها. وهنا دخلَ القادمون.

وكان أوّلُ شيء قالَه إتيان لبول: «كم تبلُغ فائدةُ مائتي ألفِ فرنكٍ في إحدى وعشرينَ سنة»؟

ــ «ثلاثةُ أضعافِ الأصل.. ولكن لمَ هذا السّؤال»؟

ــ «إنّك مَدينٌ يا سيّدي للوسيان لابرو بهذا المبلغ».

ثم قرأ عليه رسالتَه إلى حنّة منذ واحدٍ وعشرينَ عاماً، فأيقَنَ أنّ نهايتَه قد جاءت، ولم يستطعْ أن يفعلَ شيئاً لأنّه لم يكنْ يملك سلاحاً.

ثم قال إتيان: «ستكتُبُ اعترافاً بكُلّ شيء». ثم أعطاه وَرَقَةً وقلماً من أجلِ ذلك، لكنّه رفضَ أن يكتُبَ اعترافاته، خوفاً على سُمْعَةِ

ماري، لكن ماري تقدّمت نحو أبيها قائلة: «اكتُب كلّ شيء يا أبي.. وأعطِ لوسيان ستمائةِ ألف فرنك.. أمّا أنا فأحمَدُ الله أنني لن أُعَمَّرَ طويلاً». ثم خرجتْ من الغُرفةِ وقد اشتدّ سُعالُها اشتداداً رهيباً.

وكم كان الموقفُ مؤثّراً عندما أخبر الموجودونَ حنّة بأن جورج ابنُها.. لقد كانتْ تلكَ اللحظةُ بالنسبة لها، كفيلةً بأن تُنْسيَها عذابَ إحدى وعشرينَ سنةً كاملة.

وعندما خَرَجَ الموجودونَ من منزلِ بول، مارّينَ في القاعةِ الكبيرةِ، وجدوا ماري ميّتة، وإلى جانبها وَرَقَة تقول:

«إلى لوسي فورتيه:

لقد ظَلَمْتُكِ! أرجو أن تغفري لي، وتُصَلّي لراحة نفسي، ولا تنسيْ أنّني كنتُ أحبّ لوسيان حتى العبادة».

وبعد أشهرٍ حُكِمَ على كلٍّ من بول وأوفيد بالسّجن المؤبّد، وفَضّلَ بول الموتَ على السّجن، فانتحر.

أما لوسي ولوسيان فقد تزوّجا، فتمّت بذلكَ سعادتُهما، وسعادةُ جورج، وسعادةُ المسكينةِ حنّة، بعدَ عذابٍ طويل.

أسئلة حول «بائعة الخبز»

١ ـ هل كانت السيّدة «حنّة» راضية بعملها؟ لماذا؟

٢ ـ لماذا كانت «حنّة» بحاجة إلى الألفي فرنك؟

٣ ـ لماذا طردت «حنّة» من حراسة المعمل؟

٤ ـ ما سبب انتقام «جاك جيرود» من «حنّة»؟ وكيف انتقم؟

٥ ـ ما الأمر الذي أذهل «جاك جيرود» وهو في السفينة؟

٦ ـ كيف تعرّفت «حنّة» على ابنتها؟

٧ ـ إلى مَنْ تخلّى «جاك جيرود» عن معمله؟ ولماذا؟

٨ ـ ما المهامّ التي كلّف بها «جاك جيرود» «أوفيد»؟ ولماذا؟

٩ ـ كيف غدا «لوسيان» عندما عرف أنّ حبيبته هي ابنة قاتلة أبيه؟

١٠ ـ كيف اكتُشف أمر «جاك جيرود»؟

١١ ـ كيف تبدو لك شخصيّة «حنّة» في هذه القصّة؟

١٢ ـ عُدْ إلى القاموس واشرح ما يلي:

مغبّة العمل ـ حنث ـ الرشد ـ الشرك ـ عثر ـ عال ـ التنصّل ـ النميمة.

١٣ ـ قال الكاتب: «لا تقنط من رحمة الله يا بني». حوّل هذه الجملة إلى مثنّى، ثم إلى جمع.

١٤ ـ قال الكاتب: «صادق ابن جيل لابرو جورج ابن حنّة فورتيه». لماذا حذفت همزة «ابن»؟

١٥ ـ اضبط أواخر كلمات المقطع الأول من الصفحة ١٧ أي من: «حبيبتي حنّة ... معمله».

١٦ ـ قال الكاتب: «وقد أحضر معاونوه». أعرب «معاونوه»، وقل لماذا حذفت نون جمع المذكر السالم؟

١٧ ـ أعرب:

يا أختاه ـ إنّها الشقيّةُ حارسة المعمل.

١٨ ـ موضوع مستوحى من القصّة:

قيل: «اذهبْ إلى ما يُريك العقل، ولا تذهب إلى تريك العين».
اشرح هذا القول.

المحتويات

المكتبة العالمية للفتيان والفتيات

□ سلسلة كتب جديدة للمطالعة تلّي حاجة الفتيان والفتيات في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة.

□ أشرف على تلخيصها عن روائع الأدب العالمي نخبة من كبار الكتّاب العرب.

□ إخراج جديد　لوحات بالألوان　تجديد فاخر.

صدر منها:

١ ـ روبنسون كروزو
٢ ـ كوخ العم توم
٣ ـ آخر أيام بومبيي
٤ ـ جزيرة الكنز
٥ ـ البؤساء
٦ ـ دايفيد كوبرفيلد
٧ ـ حول العالم في ثمانين يوماً
٨ ـ قصة مدينتين
٩ ـ أوليفر تويست
١٠ ـ الزنبقة السوداء
١١ ـ القلعة
١٢ ـ مرتفعات وذرنغ
١٣ ـ الفرسان الثلاثة
١٤ ـ آيفنهو
١٥ ـ دون كيشوت
١٦ ـ بائعة الخبز
١٧ ـ أحدب نوتردام
١٨ ـ طفل من غير أسرة
١٩ ـ كولومبا
٢٠ ـ تمرّد على السفينة باونتي
٢١ ـ سجين زندا
٢٢ ـ ترّاس بولبا
٢٣ ـ لورنادون
٢٤ ـ سايلاس مارنر

تَحْرِصُ **دار العلم للملايين** على أن تَبْقى كُتُبها رَائِدَةً وَطَليعيَّةً مِن حَيْثُ المضمُون وَالإخْرَاج. وَيهمُّها أن تَتَواصَل مَع قـرّائها وَأن تطّلع عَلى آرائِهم في مَنشوَراتها. فإذا كَان لدَيك، عَزيزي القَارئ، رأيٌ أو مُلاحَظةٌ مُهمّة حَول هذا الكِتاب نَرجو أن تكتبَ إليْنا على العُنوان المدوّن أدناه. ويُمكنك أيضاً أن تَطْلُب قائمةَ مَنشوَراتنا مَجّاناً للاطلاعِ على جَميع إصداراتنا وأسعَارهَا.

دار العلم للملايين ص.ب: ١٠٨٥ - بيروت - لبنان

بائعة الخبز



كزافيه دي مونتابين

دار العلم للملايين